2000

اقتصاد السعادة





الأوائل



اقتصاد السعادة

اقتصاد السعادة

د. كمال اللبواني

==========================

الطبعة الأولى: 2000

==========================

لوحة الغلاف والتصميم: الفنان الحكم النعيمي

==========================

دار الشموس للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق، مزة – هـ 6615948. ص.ب 36613

التوزيع خارج القطر دار الأوائل

هاتف: 2248255، ص.ب: 3397-10181

محمد كمال اللبواني

إقتصاد السعادة

Economy of the



5

اقتصاد السعادة

Economy of the happinesS

يعرف الاقتصاد بأنه إدارة المواد التي تتصف بالندرة (أو بالقلة)، أي هو كل ما يتعلق بإنتاجها وتوزيعها واستهلاكها، فالمواد التي تتصف بالوفرة ليست بحاجة إلى إدارة، أما المواد القليلة فهي التي يحتدم التنافس للحصول عليها، وهي التي بحاجة لإدارة وهذا ما نعنيه بالاقتصاد.

وطالما أن الحياة قد تكفلت بإنتاج التعاسة على نطاق واسع، فنحن لن نختلف على اعتبار السعادة شيء ما ينصف بالندرة وبالتالى تحتاج للإدارة.. فتحت عنوان اقتصاد السعادة سوف نبحث في إنتاج السعادة واستهلاكها بهدف الوصول إلى الطرق الكفيلة بزيادة هذه المادة التي نلح في طلبها. أي أننا لسنا بصدد الحديث عن يوتيبيا اقتصادية، أو اقتصاد خيالي سعيد، بل سيكون موضوعنا هو البحث عن السعادة في الواقع و ضمن الإمكانيات المتاحة، هذا إذا كان لنا سيطرة على حياتنا، وإذا كنا نستطيع التخطيط العقلاني لها على مستوى الفرد والجماعة.

من هم السعداء في عالم اليوم.. هل هم الأغنياء هل هم الفقراء هل هم المسؤولون أم المشاهير.. هل هم الرياضيون أم الشعراء.. النساء أم الرجال.. ماذا نقول إذا كان الكل يشتكي وينوح، ويحتج ويتذمر.. أين السعادة وأين اختفت ولماذا.. هل نحن نعيش نمط حياة

يعجز عن توليد السعادة بالرغم من التقدم المادي الكبير؟.. أم أن التعاسة المتولدة تغطي السعادة وتدفنها.. هل البشر يتسببون بتعاسة بعضهم البعض.. ولماذا.. أم أن الرفاه والتقدم هو ذاته قد فلص الشعور بالسعادة..أم أن السعادة حلم مستحيل المنال.!؟

أسئلة ومواضيع كثيرة ومتشعبة يجب أن يطالها البحث الذي سيكون أكثر تعقيداً مما يظهر للوهلة الأولى، خاصة إذا أردنا له أن يكون عملياً، أى مترابطاً بالواقع والإمكانيات، حيث نكتشف ترابطه بالنظم والقيم والمعارف والعقائد، بالثقافات والسياسات والبنى الاقتصادية المختلفة، وهذا ما يضطرنا أن نتطرق إليها وأن نناقشها من موقع محايد يغض النظر عن ما تدعيه لنفسها أو ما تعنيه للبعض ممن يقدسها.

لكي يكون عملنا منهجياً علينا في البداية أن نقدم تعريفاً محدداً للسعادة، لكن تعريفاً كهذا قد يعبر عن وجهة نظر واحدة من الحياة، وبسبب اختلاف وجهات النظر واختلاف التعريفات فإننا بالتالي سنتجاوز محاولة التعريف المبكر، لنعود لاستنتاجه بعد استعراض كافة وجهات النظر التي تتعلق بما يمكن تسميته بالسعادة.. أي أننا سنناقش كل ما يمكن أن يطلق عليه هذه الصفة بغض النظر عن موقفنا منه، ثم نترك تكوين التعاريف والمواقف حرة.. فلو عرفنا السعادة بأنها عبارة عن: سعادة الخير والعطاء أو سعادة العمل أو سعادة الإيمان أو سعادة الطعام أو سعادة التملك أو سعادة السلطة أو سعادة الحقيقة.. نكون في الواقع قد انتمينا إلى وجهة نظر محددة وجزئية: أخلاقية أو اشتراكية أو دينية أو شهوانية أو رأسمالية أو فاشية أو علمية على التسلسل. ونحن لا نريد إغفال أى منها..

إن البحث في هذا الموضوع يتطلب التعريج على تكوين النفس الإنسانية وآليات تشكل الرغبات والدوافع.. كما يتطلب معرفة في الآليات التي أجابت بها التشكيلات الاجتماعية المختلفة على تلك

الرغبات والدوافع، وهذا يعني فهم وسائل وطرق وأشكال ارتباط النظم والقوانين والأعراف السائدة برغبات ودوافع الأفراد المنتمين لجماعة بغض النظر عن كونها قبيلة أو قرية أو أمة أو شريحة أو طبقة.. وهذا يعني ضرورة الإلمام بعلم الاجتماع أيضاً. إضافة إلى معرفة واطلاع على الثقافات والعقائد والنظم الاجتماعية المختلفة والمتنوعة والتي قد تكون بعيدة عن أو مخالفة لثقافة ننتمي إليها، وفكرة نؤمن بها، أي منذ البداية يجب علينا أن نكون قادرين على التجرد وعلى تقبل الرأي الآخر الذي قد لا يناسبنا، وهذا ضروري للقارئ قبل أن يتابع معنا صفحات هذا الكتاب.

لقد حاولت أن أتطرق لكل وجهات النظر وأن أكون محايداً قدر ما استطعت، وتوخيت الدخول مباشرة نحو المواضيع الحساسة والجوهرية والهامة، وقمت بتوضيح كل مصطلح أو مفهوم استعملته، كما تعمدت الاختصار وعدم الإطالة واستخدمت كل إمكانية للتبسيط في طريقة تناول موضوع معرفي فلسفي نفسي شديد التعقيد.



حُب وكره

الطفل الوليد منذ ولادته لا يملك تحت ضغط حاجاته سوى الصراخ، إنه يطلق ذلك الصوت كتعبير عن ألم داخلي وحرمان، لكن هذا الصراخ بشكل عند الآخرين نداءً يدعوهم للعناية بالطفل وتأمين حاجاته.. تقوم الأم أو المربي تطوعاً وتحت دافع الأمومة بتلبية حاجات الطفل الذي يصرخ حرماناً.. ويتحول هذا البكاء إلى أولى وسائل الطلب وأهم وسائل التعبير عن الحرمان، وسيبقى حتى عند الكبار وسيلة التعبير عن الألم والخسارة والحرمان والعجز.. وفي الوقت الذي يكون فيه البكاء وسيلة التواصل الوحيدة بين الطفل العاجز المعتمد كلياً على غيره، وبين المحيط الذي وجد فيه ولا يعرف عنه شيئاً، يكون الآخرون منهمكين في رعاية هذا الطفل الصغير بحكم غريزه الأمومة أو بحكم رغبات أخرى تزرعها الثقافة الموروثة بما تحمله من قيم الواجب ومن مشاعر التعاطف والحنان.

رويداً رويداً يتعرف الطفل على هذا الآخر الذي يحمل له كل شيء.. الحليب والدفء والحب أيضاً، وينشأ عنده ترابط مباشر وبسيط بين هذا الآخر وبين إكفاء الحاجات أو الخلاص من ألم الحرمان، فيصبح هذا الآخر مرغوباً فيه ومطلوباً التوحد معه.. كما ينشأ ترابطات شرطية بين صوته وصورته وبين المشاعر المتولدة عن إشباع الحاجات.. إنها أولى العواطف وأولى الرغبات وأهمها وأقواها إنه **الحب** حب الطفل لهذا الآخر بملامحه وشكله وصوته، إنه حب الوليد لجنسه عند الإنسان كما عند الحيوان، حيث أن الطفل لا يميز في البداية بين أهله وغيرهم من البشر الذين هم بالنسبة إليه سواء لهم نفس الدور والوظيفة **آخر**

(إنه في هذه المرحلة يبتسم ويتفاعل مع كل من يتقرب منه).

إذاً يتعرف الطفل على الآخر ويحبه قبل أن يتعرف على نفسه ويميزها، ثم يتعرف على نفسه من خلال الآخر وبمساعدته، أي أنه في هذه المرحلة يميز نفسه عن الآخر (في البداية يتعرف على الآخر B ثم على الأنا A) وما أن يكون الطفل مفهوماً عن ذاته وعن الآخرين حتى يبدأ بعاني من مشكلة جديدة.. هي مشكلة انقسام الآخر إلى قسمين.. فالآخر لا يستطيع أن يلبي للطفل كل ما يريد ولا يشجع كل سلوكه، الآخر لا يسلك بالنسبة لطلبات الطفل ذات السلوك بذات الطريقة.. إنه يهمل بعضها ولا يحاول تلبيتها.. ثم يستنكر قسماً منها ويرفضه.. ثم يحاول أن يفرض على الطفل سلوك لا يرغب فيه.. الآخر لم يعد موحداً ومحبوباً.. الطفل ينكر هذا القسم المعادي من الآخر ويحاول إلغاءه وتجاهله وتوحيد الآخر وضمه تحت لواء القسم المحبوب الذي يتمسك به بكل قوة (هنا ينقسم الآخر B إلى قسمين +b و -b ويحاول الطفل أن يتمسك بـ+b وإنكار - b أو توحيد الآخر تحت خيمة +b المحبوب).. لكن الآخر يرفض ويستمر غير آبه بما يريد الطفل الذي يقع في إرباك وتناقض وحيرة.. فسلوك الآخر المحبوب متناقضاً، مرة يعبر عن دوره المحبوب القديم.. ومرة يسلك سلوكاً جديداً معادياً مكروهاً. وبعد فشل الطفل في عملية إقصاء الآخر المكروه. بسبب تفوق الآخر، تنتهي تلك المرحلة بأن ينقسم الآخر حسب وعي الطفل وبطريقته إلى آخرين.. آخر محبوب ومطلوب ومرغوب وآخر مكروه ومرفوض.. (B = +b + -b) وهذا لا يعني انفصال الأم عن غيرها.. بل يعني انقسام الأم ذاتها أو المربي والآخرين أياً كانوا، إلى قسمين واحد محب وواحد

مكروه.. هنا تنشأ عاطفة **الكره** وتتكون نواة الرغبة في النفي والإلغاء والإقصاء والإخضاع (يبدأ الطفل بالرفض والضرب والإيذاء).

لكن الآخر متحد وموحد ويرفض التقسيم، ويرفض إقصاء الآخر المكروه بل يستمر في فرضه على الطفل.. ويستمر بالضغط عبر باب الترغيب والترهيب أو التهديد والعقوبة للتأثير على سلوك الطفل.. الطفل ينكر هذا ويريد من الآخر أن يتطابق معه، والآخر ينكر جانباً من الطفل ويريد إقصاءه. الطفل بحاجة ماسة للآخر.. والآخر متمسك في الطفل ومتفوق عليه.. (هنا يستطيع الطفل أن يفهم أن الأنا تنقسم بنظر الآخر إلى قسمين قسم محبوب وقسم مكروه ومرفوض: $A = a+ + a-$) ويحاول أيضاً رفض هذا التقسيم وتوحيد الأنا تحت خيمة الأنا المحبوب من قبل الآخر دون جدوى.

رويداً رويداً يدرك الطفل أن إنكار جزء من الذات هو الطريق الوحيد للتصالح مع الآخر المنقسم على نفسه تجاه الذات.. وعدم إمكانية شطب الآخر المكروه تنتهي بكبت وقمع الأنا السلبي الذي ينكره الآخر، فحسم ذلك الصراع المستمر لن ينتهي ولن تبرد حدته إلا بعد الرضوخ لمطالب الآخرين بقمع ومنع و إخفاء وإنكار جزء أساسي من الذات ومن طلباتها ورغباتها.. فالتصالح مع الآخرين وكسب ودهم ومساعدتهم، والخلاص من التناحر معهم لن يتم بدون كسر جزء أساسي من الذات وقمعه..

يحتاج الطفل للقيام بهذه العملية إلى تكوين ممثل عن الآخر في ذاته يقف رقيباً على السلوك يضبطه ويوجهه بما يرضي ويناسب عملية التصالح مع الآخر.. أي عندما يصبح للآخرين مندوباً عنهم داخل النفس يقوم بدورهم بالمراقبة والمعاقبة والتشجيع والمنع.. عندها تكون **الأنا العليا @** قد تشكلت (حسب التعبير الفرويدي) **ويكون الطفل قد**

اعترف ليس فقط بتنافض الآخر من وجهة نظر الأنا بـل بتناقض الأنا من وجهة نظر الآخر، وأقام في وعيه نظام مراقبـة مسـتمر للهدنة المعلنة مع الآخرين الذين لا مهرب من البقاء معهم، وبدأ بتطويـر وتدريـب وتضخيـم جـهاز جديـد وهـام هـو مـا نسميه(الإرادة)أي بوابـة السـلوك التـي يتحكـم فيها الوعـي، وتلجم كل سلوك لا يمر بـالوعي ولا ترضى عنه الأنا العليا @ المراقبة بصرامة..

فالعلاقـة المتوتـرة (التلاحميـة التنافريـة) القائمـة بيـن الفـرد والجماعة هي التي تبرر ذلك الشعور المزدوج بالحب والكـره معاً، ليس فقط للآخر بـل أيضاً للـذات التـي تتسـبب هـي لنفسـها بـالعداء والألـم والعقاب.. الذي يسبقه ويعبر عنه قلق وعـذاب الضمير النابع مـن إدراك المراقب الداخلـي للواقـع الموضوعـي ولـردة فعلـه المنتظـرة علـى السلوك.. فالقيم والمثل والضوابط المركبة داخل الأنا الأعلـى ليسـت إلا حصيلة وعي جماعي متراكم منقح للوجود الاجتمـاعي تزرعـه الثقافـات والتربية داخل نفس الطفل وترعاه وتضخمه وتجعلـه حاكماً داخلياً يوفـر عليـها أسـاليب البطـش والعقاب المكروهـة.. أي أن البشـر محكوميـن بـنزعتين متنـاقضتين ومتلازمتيـن مـن الاندمـاج والانفصـال عـن الجماعة،يقوم الوعي والإدراك والإرادة بتأثير الأنا الأعلى المزروعـة بقـوة الجماعة وبفعل التربية على تسويد جانب الانضمام وإخفاء جانب العـداء فيها.

وما يجب الانتباه إليه أن هذه التقسيمات هي ترسـيم تبسـيطي، إنها في الواقع ليست سكونية وثابتة بل متحركة ومتغيرة والمراحل أكثر تداخلاً واندماجاً، والعمليات هذه لا تنتهي في الطفولـة بـل تسـتمر فـي الحدوث خلال فترة زمنية طويلة، قد تستمر ما اسـتمر الإنسـان بالحيـاة

والتجدد، كما أن الأنا الأعلى المتولدة لا تتكون بشكل مستقل عن الأنا والوعي ولا هي متحجرة عصية على التعديل.. بل إن الفرد الناضج يساهم في التحكم بالرغبات وتكوين السلوك و رفع وتهذيب الأنا الأعلى بما يتلافى مع الجماعة التي يرغب في الانضمام إليها ويرى نفسه عضواً فيها، وبما يتناسب مع الطريقة التي يريد أن ينضم بواسطتها إلى تلك الجماعة الواقعية أو المنتظرة، وبما يتناسب مع الدور الذي سيلعبه ضمنها أو الذي تعطيه له... إن صورة الذات بنظر الآخرين وصورة الذات التي نحب الآخرين أن يروها، وصورة الذات كما يحب الآخرين أن يروها، وصورة الآخرين كما نحبهم أن يكونوا عليها، هي عوامل مؤثرة وهامة في رسم الملامح الشخصية للفرد. والفرد يستطيع بقدراته تعديل وتحسين صوره هذه بعد إدراك صورته الحقيقية. فنحن نتحدث عن العمل الإنساني الذي تسبقه الإرادة والتصميم ثم يتبعه التنفيذ والفعل المشروط بتسهيل الإرادة ومباركة الأنا الأعلى..

إن مزيجاً من الحب والكره دوماً موجود في معركة الحياة، ومزيجاً من القبول والرفض والفرح والحزن أيضاً. حتى أن الحياة تبدو ميالة للون الرمادي القاتم.. لتفوق الجانب المؤلم على الجانب المفرح، يكفي أن نذكر من الأسباب قلق العجز والفناء اللذان لا يقوى الإنسان على الفكاك منهما.. فمحدودية الجسد الإنساني تتناقض من حيث الأساس مع وعيه الميال للمطلق والخلود. بل إن وعي الإنسان (الكائن الواعي الوحيد بين الكائنات) لوجوده ونفسه لهو أمر ساحر فعلاً، يتجاوز جسده الضعيف وإمكانياته المحدودة (للإنسان القدرة على وعي الكون والظواهر البعيدة والقريبة كما له القدرة على وعي الماضي والتنبؤ للمستقبل.. لكنه على أي حال لن يعيش إلا زمناً محدوداً في مكان محدود) وهذا السعي المستمر لتجاور الفاني نحو الخالد والذاتي نحو الموضوعي والصامت نحو الناطق سيولد عند البشر رغبات كثيرة

ومعقدة ونبيلة نساهم في تعزيز دور الجماعة التي تشكل الملاذ الأقرب للهاربين من الضعف والفناء.. مما سيولد تناسباً عكسياً بين المعرفة والفرح لا يعوضه إلا نوع سحري من السعادة التعويضية مثل سعادة المعرفة والسعادة الصوفية أو السعادة الأخروية كما سنرى.

ومزيجاً من الحب والكره موجود تجاه أي موضوع من مواضيع الحياة، وهذا المزيج بين الحب والكره هو ذاته الذي يجعل حتى تحقيق الأشياء المرغوبة بشدة أمراً لا يولد إلا سعادة محدودة، ويجعل الحزن على فقد الأشياء الغالية محدوداً أيضا.. ليس فقط بالنسيان والاعتياد.. بل بمشاعر الكره الدفين المغمور بالحب الظاهر والحب الدفين المغمور بالكرة الظاهر بما في ذلك حب الذات ذاته.. وهو أيضاً ما يفسر انفلات السلوك العدواني لا إرادياً تجاه من نحب. حتى تجاه الذات، أو العكس (في حالة الكره).. فبعد فقد الشخص المحبوب سرعان ما تنطلق مشاعر فرح خجول تعبر عن الخلاص من أسره ومن متطلباته.. حتى خسارة الحياة ذاتها لا تبدو مؤلمة كثيراً إذا كانت تعني نهاية العذاب والشقاء. ففي الوقت الذي يصاب فيه الأغنياء والناجحون بوسواس صحي يعبر عن رغبتهم وتمسكهم بالعيش.. يهمل الفقراء والسجناء صحتهم ويضحون بها بسهولة.

إن عملية تدجين البشر، أقصد توجيه الصفات المكتسبة للإنسان بما يتناسب مع دوره الاجتماعي المنتظر بواسطة التربية، هي عملية صعبة ومعقدة ولا تتكلل دوماً بالنجاح.. فمن الصعب على بعض البشر أن ينصاعوا لما تمليه عليهم الجماعة.. كما أنه من الصعب على بعض المربين الوصول لأهدافهم بسبب ضعف إمكاناتهم أو خلل مناهج التربية ووسائلها.. فعملية التربية (التدجين) عملية قاسية تحرف تكوين الطفل، وتغير في جوهر دوافعه وتعقدها

إلى درجات لا توصف.. فاقتحام حياة الطفل بمنظومة لغوية ومفهومية وقيمية جاهزة وضخمة، ثم حقنه بجرعات عالية من الموروث الثقافي، وإخضاعه إلى امتحانات عسيرة، هي عملية جراحية وراضة تنتهي بإحداث انقسام خطير في بنيته النفسية بين مراقب ومراقب ممثل للذات وممثل للآخر قوة دافعة وقوة كابحة.. أي هي عملية تشويه مقصود لطبيعة الطفل بهدف ضمه القسري للمجتمع تحت سلطة الترغيب والترهيب المستمرة.. إنها أشبه بعملية تنسيب إلزامي لحزب وحيد ديكتاتوري هو حزب السلطة الاجتماعية.. فإذا ما فشلت عملية التنسيب، أو جرى استنكارها فيما بعد لسبب قد يكون تكوينياً أو قهرياً.. فإن مصير الفرد سيكون نحو مشفى الأمراض العقلية أو السجن. **هنا ليس من الدقة أن نقر بأن الإنسان حيوان اجتماعي بالفطرة.. هو بالفعل حيوان اجتماعي لكن بالتدجين..** وإذا قبلنا بتفوق دوافع الخير على الشر (خير وشر بحسب وجهة نظر جماعة إنسانية معينة) **فهذا لا يعني أن الفطرة تولد الجماعة وأن معاكسة الجماعة أيضاً ليست من الفطرة.. فالدوافع الأساسية التي تحرك البشر** وهي ما نقصده بالفطرة أي قبل تدخل الظروف المحيطية المتعلقة بوجود الجماعة وأثرهم على الفرد.. أي بنية الطفل كما يولد.. **هي دوافع محايدة بالنسبة للخير والشر،** (دوافع وفقط).. يمكن أن يحققها طريق ولا يحققها آخر.. أو أن تتحقق في الطريقين معاً وهذا هو الأشيع.. وغرائز البشر الطبيعية لا تعدو عن غرائز يمكنها أن تساهم في الانتساب لقطيع يلبي الحاجات الغريزية التي تتحقق مباشرة وبتلقائية و لا تحتاج لإرادة وأنا أعلى وكبح وتكبيت وتخطيط وحسابات ومنع وتحريم..

هنا أيضاً يُطرح تساؤل جوهري آخر.. هل الجنون أو الجنوح (أي الخروج عن دائرة الانضباط والقدرة على التلاؤم مع المجتمع).. هو خلل

في الفرد ويحمل مسئوليته الفرد، أم هو خلل مؤسس له في الجماعة، وتعتبر الجماعة مسؤولة بدرجة ما عنه، لأنها هي التي قامت بعملية التدجين و بحرف الطفل عن فطرته، واعتبرت قبوله لهذا الانحراف هو الصورة الطبيعية وليس المرسومة له (أليس سائق السيارة هو الذي تسبب من حيث الأساس بوجود احتمال التعرض للخطر، أليست الجماعة التي وضعت القوانين التي تحمي بها نفسها هي التي خلقت إمكانية حدوث تناقض بينها وبين الفرد الذي يجبر على إنكار طبيعته، إضافة إلى أنه غير مسؤول عن تربيته..) صحيح أن النظام الاجتماعي يكون ضحية السلوك الفردي المناقض له، وله حق الدفاع عن نفسه.. لكن المسؤولية تقع في غالبها على المجتمع أولاً.. لذلك ليست مقبولة فلسفة العقوبة الانتقامية، بل فقط فلسفة العقوبة الإصلاحية والزاجرة.. أيضاً ليس مقبولاً ممارسة التعذيب الجسدي والتنكيل لأنه يعبر عن حقد ورغبة في الانتقام، تتنافى مع جوهر تقسيم المسؤولية التي تقع في غالبها على عاتق الجماعة المسؤولة نظرياً عن كل انحراف، وهذا ينطبق على منطق عقوبة الإعدام أيضاً، حيث أن الخلل الحاصل في أي فرد هو ليس نتيجة تكوينية بل نتيجة فعل تدجيني فاشل قامت به الجماعة (أي أن الفرد هو منتوج اجتماعي يُسأل عنه مُنتجه ولا يُسأل هو لوحده عن تكوينه الذي تم تشويهه).. بل إن توجه الحقد نحو الأفراد المنحرفين هو أقصر طريق لتهرب الجماعة من مساءلة ذاتها ومراجعة وسائلها في تدجين أبنائها وضمهم للحظيرة الاجتماعية.

كما يجب الاعتراف أن الكثير جداً من الدوافع المضادة للجماعة تعود للظهور بين الفينة والفينة فهي لا تذهب ولا تختفي تماماً.. فعملية السير بعيداً عن دوافع الإنسان يوقعنا في خطر زيادة احتمال خرق نظام الجماعة.. إن المنظومات الاجتماعية القاسية والتي تشترط

زيادة الضغط على البشر ترفع نسبة حدوث التوتر ونسبة احتمال خرق المحظورات، أو احتمال دمار البنيان النفسي والجنون.. (فالجنون وبالرغم من مرض جنون البقر الذي هو تخرب عصبي بفعل فيروس وليس جنوناً بمعنى الجنون الذي يصاب به الإنسان، الجنون - بالرغم من ذلك - هو ظاهرة إنسانية تكاد تخص البشر وحدهم وهي نتيجة لتفجر قدرة النفس المشوهة بفعل التربية والتدجين على التوازن والتماسك، وكل إنسان مجنون بطريقة ما وبدرجة ما وفي ظرف ما.. والخط الواصل بين العقل والجنون هو خط وهمي واعتباري لا يعبر عن الواقع الذي يمزج بشدة بين العقل والجنون بتعاريفهما الشائعة والمتداولة) لذلك مالت النظريات الاجتماعية الحديثة إلى مزيد من الاعتراف بطبيعة الإنسان وبدوافعه كلها (الخيرة والشريرة).. بل إن هذا الاعتراف ضروري لمنهجة عملية الضبط وتطويرها. وبشكل خاص تطوير وسائل تصريف تلك الدوافع بأقل التكاليف (أما الاكتفاء بالاستنكار والرفض فهو أسلوب من لا يملك وسيلة التأثير: اقصد المجتمعات التي تنعدم فيها السياسة وعملية التدخل الاجتماعي العقلاني الواعي في معمعة الحياة وفي تنشئة الأجيال).

إن الجرائم البشعة التي تحدث بين الحين والحين لا تحركها نفوس ومشاعر تختلف كثيراً عما لدينا.. إن أعني المجرمين هم بشر تحركهم الدوافع ذاتها التي تحركنا.. لكنهم يفقدون في لحظة معينة ولسبب معين قدرتهم على ضبط سلوكهم أو القدرة على السيطرة على إحدى رغباتهم المقموعة والمدفونة قريبة من سطح مشاعرهم. وكذلك الحال عند من يفقدون توازنهم النفسي.. إنهم لا ينقصهم الكثير عما لدينا من قدرات وذكاء ومعرفة.. لكنهم فقط فقدوا _ لسبب كامن فيهم أو في الظروف المحيطة _ القدرة على الحفاظ على توازن سلوكي خارجي هش صنعه التدجين و تتنازعه الرغبات المتناقضة، وتتحكم به

إرادة مصنوعة بفعل عملية تقسيم النفس الهادفة لإقامة تضاد داخلها يلخص ويلغي ويمنع التضاد الخارجي..

إن اندلاع العنف الأعمى، وارتكاب المجازر التي تجري على أيدي بشر عاديين، كانوا حتى لحظة قريبة أسوياء ومسالمون، لهو أكبر دليل على هذا المخزون الضخم الكامن والمتحفز بشدة للانطلاق في كل مرة تسنح بها الفرصة.. وغالباً ما تكفي مبررات صغيرة لتفجر عنف وإجرام ليس بعده عنف ولا إجرام.. حتى أن أكثر الطغاة دموية تراهم في جانب آخر من الحياة أناس رقيقين وعطوفين.. ولا يوجد مجرم لا يستطيع أن يدعي أنه كان ملزماً أو أنه هو أيضاً كان ضحية ظرف قاهر. كما أن المجازر البشعة المرتكبة ضد الإنسانية عادة ما تجد تبريرها المقنع لمن قام بها ضمن المبادئ والقيم التي تدعي أنها إنسانية أو تمثل ضمير الجماعة أو تعبر عن إرادة آلهتها..

إذا لا يمكننا في النتيجة تصنيف البشر إلى خيرين وشريرين بل نصنف النظم والظروف إلى ظروف تولد الشر وأخرى تولد الخير.. وهذا هو جوهر قصة نوح فبعد غرق كل المخطئين عاد الشر وتولد في قلب الجماعة المؤمنة، فالنضال ضد الخطيئة والإثم ليس نضالاً وحرباً ضد أشخاص، بل ضد نظم وظروف تسمح بانطلاق تلك الدوافع. بل هو أصلاً ضد الأسباب التي تساعد على تكوين أو تقوية هذه الدوافع، ثم ضد الظروف التي تستثيرها وتؤججها ثم التي تسهل تلبيتها وتعرقل عملية تصريفها الرمزي.

ولو تحول البشر جميعاً إلى مؤمنين بالخير والصلاح وتحكمت فيهم أنا عليا مبنية على القيم والأخلاق الإنسانية لانتفى الصراع بين البشر، لكن هناك أنوع مختلفة ومتناقضة من الحواكم التي تتحكم بالبشر (أنا عليا)، وهناك درجات تحكم مختلفة، وأحياناً يزول هذا التحكم، ويضعف..

لذلك فمسعى البشرية نحو زوال الصراع والتناقض والنزاع مسعى ما يزال بعيد المنال.

أي أنه يجب أيضاً الإشارة لدرجة قوة الأنا العليا وقسوتها، ودرجة تسلطها أو مرونتها، فهناك أهمية كبرى للدور الذي يرى فيه الفرد نفسه ويريد لعبه، أو حتى لما يقوله ويدعيه ويطلقه ويعلن التزامه به، وهو قد يلاحقه ويسيطر عليه إلى درجات عالية.. والبعض يخسر حياته ثمناً لكلمة أو موقف، والبعض يكتب على جبينه أنه شهيد ويعيش ليضحي بنفسه في معركة لانهمه نتائجها المادية. فهناك أنماط من الشخصيات وأنماط من المواقف ودرجات من قوة الالتزام والتأثر والانصياع للانسجام الداخلي، تختلف بين البشر وفي البشر أنفسهم مع تغير الوقت ومع تغير الشخصية.

حاجة ورغبة

للجسد حاجات تلح في طلبها، يسبب عدم إشباعها نقصاً كيماويا، أما تلبيتها فتسبب سد هذا النقص وإسكانها لفترة قبل أن تعاود بعدها.. فالحاجات هي متطلبات الجسد من غذاء وراحة ونوم وجنس وتدفئة ولعب واطمئنان.. **متطلبات الجسد هي حاجات.. أما متطلبات النفس فهي رغبات**، والرغبة عبارة عن حاجة نفسية وليس جسدية، لا يسبب عدم إشباعها نقصاً كيماويا بل ألماً نفسياً. الحاجة تشبع وتنكفئ إلى حين، في حين أن الرغبة تشبع وتستمر في طلبها ولا تنكفئ، في كل مرة ندخل الوعي ستلح في طلبها. الرغبة يمكن نسيانها وتجاهلها والتحايل عليها.. بينما الحاجة أكثر قوة وصلابة وإصرارا. الرغبة قد تتشوه وتنحرف، لكن الحاجة لا تتشوه ولا تنحرف.. الرغبة تتشكل على الحاجة وحولها وفوقها ومن خلالها.. بينما الحاجة ترتبط مباشرة بالتكوين الفيزيولوجي.. فالأساس هو الجسد ثم النفس القائمة فيه وفي خدمته.. لكن هذه الوحدة بين الجسد والنفس لا تلغي تمايزهما وتعارضهما أحياناً.. فالتمييز بين الحاجة والرغبة قد يضعنا في مأزق إقامة التعارض بين الجسد والنفس أقصد أن تكون النفس على عكس الجسد أو الجسد على عكس النفس وأن ينفي أحدهما الآخر... (فتصبح المتعة النفسية تشترط قتل الشهوات وإفناء الجسد.. كما في التصوف أو في البوذية.. أو على العكس من هذا التسامي الإفراط في تقدير حاجة الجسد على حساب إهمال القيم والمثل والحاجات النفسية العليا كما هو الحال في فلسفة اللذة التي تطغى على الحضارة الاستهلاكية المعاصرة التي يسهل اتهامها بأنها

مادية أي بمعنى معاكس للروح)... وعلاقة الحاجة بالرغبة علاقة قائمة وثابتة في بعض الرغبات، حتى أنها قد لا تتحقق بدون الحاجة، والكثير من الرغبات المرتبطة بالحاجات، تنتظر نشاط الحاجة وانبعاثها لكي تتحقق، وهذا ما نراه جلياً في الجنس والطعام والرغبات المتعلقة بهما. وهناك رغبات غير مرتبطة بالحاجات، أو لنقل رغبات تشكلت على رغبات أخرى، أو في مستوى آخر ليس له علاقة مباشرة بالحاجات الجسدية..وإن كان من الممكن إثبات أثرها الحسماني، فكل رغبة وكل شوق يولد هياج وكل هياج يغير في تكوين الجسد وبالعكس كل إشباع له أثره على تكوين الجسم ونشاطه الفيزيولوجي والعصبي.. كيف نشبع مثلاً الرغبة في أكلة معينة دون أن نكون جائعين.. وكيف نشبع الرغبة في امرأة معينة دون أن نكون مثارين.. بينما نستطيع إشباع الرغبة في الحب أو الجمال أو الخير بشكل مستقل عن الحاجات وأحياناً معها.

للتمييز بين الحاجة والرغبة نضرب بعض الأمثلة: نميز مثلاً بين الحاجة للطعام (نقص السكريات والبروتينات والماء والأملاح..) وبين الرغبة في الطعام ذو النكهة المعينة والرائحة الخاصة.. بين الحاجة للجنس التي يمكن إشباعها بالاستنماء أو بمساعدة شريك.. وبين الرغبة في شريك جميل ذو ملامح وهندام معين.. الحاجة الجنسية لا تشذ.. لكن الرغبات المتشكلة عليها مختلفة بشدة إلى درجة يمكن اعتبار بعضها شاذا تماماً عن أصلها، حتى أن هناك رغبات تعاكس الحاجة ذاتها في الشكل على الأقل (فعدم وجود شريك من الجنس الآخر قد يدفع لاستعمال شريك من نفس الجنس يقوم مقامه، وهذا الذي عليه القيام بوظيفة جنسية معاكسة لتكوينه، قد تتكون رغباته بناء على دوره الجديد، فتأتي عنده الرغبة معاكسة للحاجة شكلاً).. أيضاً هنا يمكن الإشارة إلى أن الحاجة الجنسية عند الرجل والمرأة

مختلفة فحاجة الرجل الواضحة الجلية لا تقابلها عند المرأة سوى حاجة مبهمة يساهم الشريك في بلورتها، بل يطغى عليها رغبات نفسية قوية يمكنها أن تلغيها وتخفيها..

الرغبات الجنسية عند الرجل تدور وتتمحور حول حاجته التي عليه أن يستعملها في كل مرة يريد بها تلبية رغبة ما، على الرغم مما قد يوجد بينها من تناقضات (أقصد بين الرغبات أو بين الرغبات والحاجة).. فحب المرأة الجميلة الرقيقة الناعمة الأنيقة (وهي صفات أنثوية ترسخها الثقافات المعروفة) يناقضه سلوك الرجل المتصف بالعنف والقسوة معها وهو في سبيله لإشباع حاجته، كذلك سلبية المرأة ورقتها التي تختفي عند هياج حاجتها، فهذا مثال عن التناقض الممكن بين الحاجة والرغبة المرتبطة بها. فالحاجة الجنسية عند المرأة تشبع عبر نفس الأعصاب التي تشبع بها حاجة الرجل وبآلية مشابهة.. وهذا التكوين التشريحي الفيزيولوجي المتشابه هو الذي يسمح بتعدد وتنوع أشكال الإشباع الممكنة و بتبادل الأدوار بين الجنسين، على الرغم من الشكل الظاهري المتباين ومن التميّز الثقافي المفعّل. (الرغبات هنا تزرع بفعل الثقافة، وبفعل الظروف والشروط المحيطة بطرق تلبية الحاجة، على اتفاقهما أو تناقضهما) والثقافة السليمة هي التي تولد شروط محيطية تعزز القيم التي تحاول زرعها، وتنمي موضوعيا الرغبات التي تحدد الثقافة شكلها... أما الثقافة الفاشلة فهي التي تحاول ضخ قيم تعجز عملياً عن الإحاطة بشروط ترسيخها في الواقع، تلك الشروط التى ستلعب الدور الحاسم في تكوين الرغبات الحقيقية عند الأفراد.فتأتي القيم المزروعة بالتربية معاكسة للرغبات الناتجة بفعل التجربة الحياتية. وهذا ما يفكك البناء النفسي ويضعف دور الثقافة والتربية.

مثالنا الثاني هو الرغبة في المال.. حيث المال وسيلة مدنية لتلبية الحاجات والرغبات.. تتطور الرغبة في الحصول على المال عند البعض لتصبح شيء أقرب إلى الحاجة.. حتى أن البعض ينكر ويكبت رغباته وحاجاته في خدمة الرغبة في الحصول على المال الذي كان وسيلة ليس إلا.. ولو كانت الرغبة في المال حاجة لشبعت وسكتت، لكنها وبما أنها رغبة نفسية فهي ميالة للاستمرار ولا حد لها.. فراغبي المال لا يتوقفون لو امتلكوا ذهب العالم كله.. فهي في الحقيقة تشبع متعة امتلاك افتراضي لكمية أكبر وأكبر من محيط خارجي يشعر الفرد بالعجز والضعف أمامه.. فهذه الرغبة تغطي في النهاية على قلق الضعف والعجز وعلى محدودية القدرة.. وهكذا كما سنرى هناك رغبات تقوم بأدوار غريبة ومعقدة في تكوين نفسي معقد ومتشابك.. مثلاً يتم تصريف الانفعال المتولد عن كبت الحاجة الجنسية برغبات جنسية تتصف بالعنف الذي علينا أن نمارسه نحن أو نتوخى من الشريك أن يمارسه (السادية أو الماسوشية)، العنف القادر على خرق حواجز الكبت.. لكن درجة أخرى من التعقيد تظهر عندما يتم تصريف هذا الانفعال المتوتر الناجم عن الكبت الجنسي على شكل عنف سياسي وتزمت فكري.. هنا لا تتشوه الرغبة المتعلقة بالحاجة.. بل تنشأ رغبات أخرى تعمل في ميدان آخر بعيد عن الحاجة المكبوتة وتسلك طريقاً طويلاً قد لا يؤدي مباشرة لإشباع الرغبة، بل يؤدي فقط لتصريف الكبت والتوتر عبر الرغبة في العنف وتعميم الألم والتوتر وترجيعه حتى لو تم ذلك بطرق أخرى بعيدة عن سبب تولده وبأشكال لا تمت بصلة للحاجة المكبوتة أصلاً.. فالرغبات قد لا تتوجه مباشرة إلى أهدافها وقد تكون رغبات تعويضية وملتفة.

شيء مشابه يتم عند من لديهم الرغبة في السلطة، فالسلطة معنوية كانت أو مادية (عظمة أو منصب) هي وسيلة لتحقيق رغبات

وحاجات مختلفة لكنها تتحول بحد ذاتها إلى رغبة لا تشبع في التسلط والتعسف والإخضاع والاستبداد والتعالي والاستكبار، وهي في الواقع تغطي على، وتعبر عن، دوافع ورغبات دفينة أساسها الكره والعداء تجاه الآخر وهي شكل من أشكال التعبير التعويضي عن الضعف والخوف.. السلطة تصبح معبوداً يستعر التنافس للحصول عليها كلما زادت سوية القهر والإذلال والاستعباد.. والرغبة في القوة والسيادة والانتصار تزداد شبوعاً في الأمم المهزومة المستلبة..

بعض الرغبات تظهر بطريقة مقلوبة أو بشكل عكسي (كره الموت / حب الحياة)، كره الألم كره القهر والظلم والإهانة / حب الحرية والكرامة والعدالة الكثير من الرغبات ذات مظهر معكوس تقوم على نفي النقيض.

ولكل رغبة ولكل حاجة قوة ودرجة إلحاح.. وهناك طرق كثيرة لتأجيج الطلب واستثارة الرغبة، وهناك بالعكس طرق لكبتها وإضعافها. وتزاحم الرغبات والحاجات يجعل الوعي مقصر عن تلبيتها، وبحاجة متكررة للنوم والاستراحة من إلحاحها. فالراحة من الوعي ومن ضغطه هو بحد ذاته حاجة وضرورة ملحة.

شعور لا شعور ضمير

الإنسان يتلقى أحاسيس داخلية وخارجية، تؤثر في جسده، فيعيها عقله، أو يعيها عقله مباشرة دون أن تمر عبر التأثير على جسده، عن طريق اللغة والتعليم.. الذي يهمنا منها ما يدخل ساحة الوعي أو يضغط على السلوك ويوجهه..

أحاسيس خارجية تدخل عبر الحواس: حس اللمس والحرارة والبرودة والضغط والألم والذوق والشم والسمع والرؤية.. وأحاسيس داخلية جسدية كالجوع والعطش والمغص والامتلاء والتوتر والألم واللذة وضيق النفس والراحة والتعب.. أو أحاسيس داخلية نفسية كالخوف والقلق والحزن والكآبة والفرح والنشوة والحبور والحب والكره والملل والتسلية.. وما شابه.. وهي كلها تمر إلى ساحة الوعي ويدركها الإنسان الواعي وتشكل ضغطاً على سلوكه.. مع ما تستثيره من ذكريات مترابطة معها.. فكل ما يمر على الدماغ يقوم بتعليبه وتصنيفه ثم تخزينه، ويشكل الدماغ سجلاً هائل الحجم لمجريات الأحداث التي مرت، التي لا تختزن بطريقة سطحية مباشرة فقط، بل تحلل وتركب وتفسر وتربط وتلخص وتبوب، ثم تبنى المفاهيم منها وفوقها و التي تساعد على تسهيل التعامل مع هذا المخزون الضخم، يبني الدماغ خريطة عن الواقع في الذهن تسمح له باستعادة صورة هذا الواقع متى شاء ورغب.وبالشكل السهل المريح الذي يسهل التعامل معه.

أساس عمليات العقل هو الحفظ والربط، فالدماغ لا يسجل العناصر لوحدها، بل أيضاً يسجل العلاقة القائمة بينها.. يسجل الدماغ الأشياء والترابطات البسيطة بين الأشياء، ثم الترابطات الشرطية الأعقد، ثم الأعقد حتى يصل إلى الترابطات المفهومية المجردة، وخريطة الواقع

المرسومة في الذهن تحمل أيضاً هذه الترابطات، وتسهل عملية التفكير وتسرع عملية اتخاذ القرار، بواسطة عمليات التحليل والتركيب والاستقراء والاستنتاج (التي هي عمليات مسح وحركة في سطح الخريطة الدماغية وفي طبقاتها. لكن هذه الخريطة لا تكتب باللغة المتداولة التي نتكلم فيها دوماً، بل برموز خاصة بكل فرد.تستعمل صور وتسميات وأحاسيس متنوعة وغنية ذات دلالات كبيرة وواسعة.. لذلك تبقى كمية كبيرة من المعارف والخبرات صامتة دفينة النفس، تحتاج لاستعارة التركيب اللغوي الذي يعبر عنها، وهذا لا يتوفر دوماً ولا يكون دقيقاً في كل الأحوال، الكثير من البشر يتخذون القرار المناسب بسرعة عجيبة دون أن يستطيعوا شرح الطريقة أو السبب للآخرين.. فخرائطهم ولغتهم الداخلية تسمح لهم بالمعرفة والفهم دون توفر وسيلة التعبير. فقط المخزون اللغوي من المعارف الذي نتعلمه بالقراءة يمكننا التعبير عنه بسهولة لأنه معلب على شكل لغوي متداول.... إن هذا الكم الهائل من المخزون يشكل هو أيضاً ضغطه على الوعي والسلوك ويشكل الصورة الذهنية عن الذات والموضوع وسجل المعارف والخبرات والتجارب المتراكمة التي تحدد نوعية وشكل السلوك الصادر عن الجسد كتلبية لمتطلبات خارجية وداخلية.. تدار عمليات الدماغ كلها (تلقي الأحاسيس وحفظها وتبويبها والرد عليها) في ساحة ضخمة أو بناء ضخم هو اللاشعور، حسب التسمية الفرويدية وهو اسم مشوش قليلاً لكننا مضطرين لاستعماله.. وجزء فقط من هذا اللاشعور نطلق عليه اسم الشعور.. أشبه بشاشة التلفزيون التي تعرض برامج قناة ما دون غيرها من الأقنية الشغالة في نفس اللحظة، إن الصورة التي تسيطر على وعينا هي التي تقع في ساحة الشعور، فما نستطيع تركيزه على شاشة الشعور، هو جزء فقط مما يجري في الدماغ، لكن هذا الجزء هو الذي يستطيع أمر الإرادة القابضة على بوابة السلوك

بقوة أن تتحكم فيه، فالشعور هو يد الإرادة وعينها التي تستطيع بها الوصول للشكل الأمثل من السلوك الملبي والمفيد.. الذكريات والأحاسيس الخارجية والداخلية بما فيها الأنا العليا والضمير تشكل قوى ضاغطة على الشعور، وبالتالي على الإرادة التي تبرمج السلوك الواعي.. فالشعور هو أشبه بالكاميرا الضيقة الزاوية، أو الأنبوب الذي ننظر من خلاله لساحة اللاشعور الضخمة.. الشعور ينام بينما اللاشعور يستمر في العمل بشكل ما رغم النوم.

نقوم بفعل ما، فتبقى صورة الفعل وصورة آثاره ماثلة في الدماغ..(اللاشعور والشعور) ويثير وجودها ردود فعل وتفاعلات، أهمها ردود فعل الأنا العليا التي تهيج مراكز تكبيت الضير أو نشوته.. فنستمر لفترة معينة نشعر بالفرح أو بالأسى، عن علم أو غير علم بالسبب المباشر.. لكن إشغال الوعي باهتمامات جديدة يساعد على تغطيتها و إزاحتها من الساحة. وكل حدث سوف يدخل ساحة الدماغ، وينصادم هناك مع مراكز مختلفة، ويحدث الضجيج المناسب في عالم الوعي، ويثير فينا المشاعر ويحرض فينا الرغبات.. الرغبات هنا حاجات نفسية تضغط على النفس.. الرغبة في إصلاح الخطأ والتخلص من عذاب الضمير، الرغبة في الخلاص من القلق والخوف المحبط.. هذه رغبات آنية سريعة وهناك رغبات مستمرة وثابتة رسختها تجربة طويلة.. كرغبة الخير ورغبة الجمال ورغبة العنف، فهي تشكل نمط وطابع الاستجابة التي تعكس الصورة الداخلية للنفس، وتعبر عن تركيبتها.

ما يميز العمل الإنساني أنه يكون مسبوقاً بتصور وإرادة وتفكير وتصميم.. لكن ليس كل السلوك البشري شيء مشتق من هذا العمل، هناك سلوك إرتكاسي مشابه لسلوك الحيوان، وهناك تصرفات تتصف بردات الفعل المباشر غير الإدراكية.. هناك ظروف تضعف قوة الإرادة وإمكانية تحكمها.. هناك هيجان وهناك طغيان للعاطفة، وحتى

هناك انحرافات للإدراك والوعي والمنطق يتأثر بدرجة الرغبة ومستوى الحاجة. والكثير من الرغبات تكون موجودة ونائمة لكنها تظهر للسطح عندما تمر بها ساحة الشعور، أو عندما تذكرنا بها أشياء مترابطة معها، وقد تعمل مباشرة دون المرور في ساحة الوعي أو في غفلة من الإرادة.. لكنها سوف تشكل ضغطاً مختلف الشدة والاستمرار على ساحة الإدراك أو الوعي.. قد تغيب الكثير من الرغبات عندما تحتل الوعي رغبات أقوى منها، أو في ظروف نفسية وجسدية معينة (مرض صدمة..) لكنها لا تغوص بعيداً.. فالرغبات تفضل دائماً -كما الخشب- العودة للسطح، ومع هذا هناك رغبات تضمحل وتندثر، ورغبات تقوى وتشتد، وهناك بالتأكيد عوامل تذكر واستثارة، وأسباب خمول وضعف.. وهناك وسائل إشباع وتلبية ووسائل قمع وكبت، ووسائل تعويض وتصريف ملتفة ومتنوعة ومعقدة..

والوعي الإنساني يتحكم ببوابة السلوك بدرجة ما، أي يمتلك الإرادة التي تمكنه من ضبط السلوك، لكن ليس بدرجة مطلقة وكاملة. والإنسان يتميز عن الحيوان، ليس فقط في قدراته التركيبية التحليلية المتطورة، وفي مناهج عقله المعقدة المنقولة له من تراكم خبرات بني البشر الذي سمحت به اللغة، بل بقدرة دماغه على بناء التصور قبل الفعل، والذي لم يكن ممكناً بدون إقامة بوابة مراقبة وتحكم في السلوك هي الإرادة، التي جرى تربيتها وتنشئتها، لتتحكم ببوابة السلوك، وتبرمجه وتجدوله وتحدد مواعيده.

الجسد و النفس:

يشير إشباع الحاجات الجسدية مشاعر جسمية مختلفة.. الشبع الراحة زوال الألم النشوة الجنسية الإفراغ ..... الخ. وتقوم هذه الأحاسيس بتوليد شعور بالمتعة يتناسب مع شدة الحاجة المشبعة.. فالجوع الشديد تتبعه متعة أكبر ودرجة الإثارة الجنسية تحدد شدة اللذة.. وهكذا.

إن الأثر الناتج عن إشباع الحاجات، يختلف عن الأثر الناتج عن إشباع الرغبات. فهو قبل أن يكون في مستوى النفس، هو أولاً في صعيد كيمياء الجسد وفيزيائه، وتأثيره المزدوج هذا يجعله متفوقاً على الأثر الناجم عن إشباع الرغبات. إنه شيء حقيقي وثابت ولا علاقة له بالتكوين النفسي والثقافي، أي أنه لا يختلف باختلاف الأفراد ثقافة وتفكيراً، وبنية نفسية.. ومع ذلك فهذا الأثر لا يقتصر فقط على الجسد بل أيضاً يؤثر على النفس، كأن يحدث امتلاء المعدة شعوراً بالارتخاء، ومفعولاً مضاداً للكآبة، أو أن تزيد النشوة الجنسية الشهية للطعام أو تسهل تصريف التوتر والانفعالات الداخلية المحتقنة على اختلافها..

لكن ذلك الأثر مرتبط بشكل مباشر بمستوى طلب الحاجة ومستوى الحرمان منها.. فطعام الجائع هو بالتأكيد أمتع وألذ من طعام الشبعان.. ونوم المنهك سيختلف عن نوم المتكاسل.. ولذة المشتاق ستختلف عن لذة المعايش.. زيادة المتعة تقتضي زيادة الحاجة وتسعيرها.. وإشباع الحاجات الجسدية بشكل سريع ومنتظم، سيحرم من اللذة والمتعة، ويحول هذا الإشباع إلى عمل ميكانيكي لا ترافقه الكثير من المشاعر.. وقد يتسبب في توليد الاكتئاب، وقد يهيئ للارتقاء

إلى متع من نوع أرقى.. كما أن الحرمان المديد من إشباع هذه الحاجات، قد يتسبب بأضرار جسدية وعقلية وسلوكية، عبر مساهمته في تكوين العقد وتشكل الرغبات النفسية المنحرفة والضارة. فالأساس في إشباع الحاجات هو التوازن، أي لا تتم عملية الإشباع قبل نضوج الحاجة ولا تتأخر عنه. لكن الواقع يعلمنا أن هذه الحاجات لن تطلق طلبها مستقلة عن رغبات كثيرة قائمة عليها وحولها هي الأخرى تبحث عن إكفاء من خلال تلبية طلب تلك الحاجة.. فالطفل الذي تعود أن يأخذ الحب مع الحليب.. سوف يرفض الطعام إلا بعد أن يسبقه التودد، وقد يستخدم رفض الطعام كورقة ضغط على الأهل ليجبرهم على قبول ما لا يقبلونه عادة، لأنه يدرك بشكل مبسط ارتباط الحب والحليب ويستخدم ذلك.. لكن الكبار أيضاً يطورون عادات معقدة تنتمي إلى ذلك الارتباط.. إنه التعبير عن التقرب والتودد بواسطة الطعام، لتصبح المعدة أقصر طريق للقلب كما يقال. كما أن للولائم الجماعية أثراً اجتماعياً، وهي طقس ديني هام في بعض الديانات..

أما الجنس فهو يرتبط في بعض الثقافات بالعنف والضرر والأذى وحتى الإهانة، وممارسة الجنس لا تعتبر في كثير من الحالات تعبيراً عن الحب والموده والتقدير، بل نوع من الإذلال والإكراه والبطش، يصرف فيه المعتدون الجنسيون مشاعر الحقد والانتقام والكراهية، حتى أن بعض أشكال الحب ترفض ممارسة الجنس، لأنها تراه مناقضاً لها ومضراً في صفائها.. والغالب أن تحمل الممارسة الجنسية الكثير من المعاني المختلفة وحتى المتناقضة، وأن تساهم في تصريف كم كبير من الدوافع والرغبات المختلفة والمعقدة والمؤثرة.. وهذا التعقيد هو السمة الشائعة في الحياة العملية وليس العكس.

أما المتع النفسية فهي متع مختلفة نوعاً ما، إنها تؤثر على مراكز النشوة والفرح، لكنها لا تحدث ذلك الأثر الكيميائي الكبير.. ومع ذلك لا

يجب الاستهانه بقوتها وأثرها، بما في ذلك أثرها على الجسد.. وهي كثيرة جداً ومعقدة جداً ومختلفة جداً.

نشعر في بعض الأحيان بالحاجة للعزلة والوحدة، أو بالحاجة للاتصال بالطبيعة الصافية.. أو بالحاجة للتودد والتعاطف، أو نشعر بحنان مفاجئ على الأطفال أو حتى الحيوان.. الكثير من الأحاسيس تنتابنا وتشكل رغبات لا نستطيع شرح أو تفسير كيف ولماذا تكونت.. ربما هناك تراكمات نفسية معينة هيأت لذلك، ربما حاجات بحثت عن مناخ أفضل لإشباعها.. هناك شخصيات يطغى على سلوكها الرقة والسلم، وهناك بالعكس من يطغى على سلوكه العنف والقسوة.. هذا يتمتع بالهدوء وذاك ينعم بالضجيج، هذا يعمل بسعادة دون ملل ولا كلل، وذاك يسرع للراحة بعد أقل الأعمال. هناك تنوع واختلاف عجيب في الشخصيات والدوافع والرغبات البشرية، وبالتالي الطريقة التي يتمتع بها البشر، والدوافع التي تحركهم.. لكن الحاجات الجسدية متشابه ومتقاربة.

ونحن عندما نصنف الرغبات والحاجات ونقسمها لضرورات توضيحية وتحليلية.. لا نقصد ترتيبها حسب الأهمية ولا نريد الإضرار بمفهوم وحدة النفس، ولا وحدة النفس والجسد وتفاعلهما المستمر.

متعة الطعام:

ما يهمنا في هذه المتعة أنها تبدأ قوية جداً وبشكل طاغ في الطفولة الأولى، ثم تتراجع بالتدريج، ليس فقط بسبب نمو متع أخرى، لكن أيضاً بسبب اضمحلال ذاتي في شدة الإحساس وقوة النفس، خاصة عند التقدم في السن حيث تتدنى الشهية.. إن المرحلة الفموية من حياة الطفل مرحلة أساسية حيث يكون فيها الفم (باعتباره بوابة نحو المعدة) المصدر الأساسي للمتعة، وهذا ما سيؤثر على تكوين الطفل النفسي.. إن متعة المص ومحاولة الامتلاك بواسطة الفم، ستستمر في التعبير عن ذاتها في القبلات أو في الممارسات الجنسية، أو حتى في عادة شرب السجائر، وطقس استعمال أحمر الشفاه.

شراهة الطعام بنية جسدية ورغبة نفسية مكتسبة، والأساس في التكوين الفيزيولوجي هو حاجة البقاء، وهذا يعني القدرة الأمثل على الهضم والتخزين في مواجهة اضطراب الوارد الغذائي المحتمل، والذي كان يتحكم بقوة في استمرار النوع البشري.. أي هناك ميل طبيعي لترسيخ القدرة على التمثيل الأمثل والتخزين الأكبر والاستغلال الأفضل للموارد الطعامية، وهذا الميل الذي رسخته حاجة البقاء، هو الذي يبرر الميل المستمر لتناول ما يفيض عن الحاجة (الفزيولوجيا هنا تهدف للادخار).. لكن توفر الغذاء المستمر بسبب الحضارة المادية، وربما تزايد الرغبات المتعلقة بالطعام بسبب توفر وتنوع الطعام اللذيذ، تجعل الإفراط في الطعام سمة شائعة في العصر الحديث، الذي يتمكن فيه أربع أخماس سكان الأرض من الحصول على أكثر من الراتب الغذائي الضروري.. بينما يعيش خمسه فقط أي ١.٢ مليار بدرجه من

نقص التغذية، ويعاني نفس العدد من مرض البدانة، أي أن إكفاء الحاجة للطعام، أقصد تأمين الراتب الغذائي الضروري (العلف)، مسألة لا أقول أنها قد حلت، لكنني أقول أن مسألة **الجوع** تشاركها الآن مسألتين على نفس القدر من الشيوع: مسألة **النوعية** والطعم.(وهي كما شرحنا مسألة رغبات) ومسألة **البدانة** وهي من أهم مشاكل العصر الصحية والاجتماعية، بعد مشكلة الجوع وربما هي الوجه المقابل لها.

متعة الطعام متعة كبيرة، ونوعية الطعام ومذاقه شيء مؤثر ومثير ويحرك الكثير من البشر بشكل يومي وشبه مستمر، فالدافع الطعامي من أقوى الدوافع وأولها، وله تأثير كبير في مرحلة الطفولة الأولى وعلى الرغبات المتشكلة في ذلك الوقت، وهو دافع كبير وقوي وأساسي يستهلك الكثير من الوقت والجهد، ننتظر الجوع لكي ننعم بالطعام، ونتفنن بكل أنواع الفنون لتحسين مذاقه وطعمه ورائحته، ونصرف الكثير والكثير على تلك الموائد.. والكثير منا لا يجد لذة ولا متعة أكبر أو أهم من متعة ولذة الطعام..

نقص الماء يسبب جفاف الفم والعطش.. ونقص السكر يحرض الشهية والجوع،كذلك ذكريات الطعام وعادات الطعام وفراغ المعدة.. فالشهية معروفة وموجودة وطرق إثارة الشهية بما فيها العقاقير معروفة.. لكن لم يكتشف حتى الآن مركزاً عصبياً متخصصاً بالشبع، ولا طريقة عملية أو دوائية للتأثير فيه.. إنه شعور بالضغط والامتلاء والضيق.. فكفاية الخزانات الغذائية لا ترتبط مباشرة بالمراكز العصبية.. هناك مدخرات وهناك وقت كبير يسبق تحول معظم الأغذية إلى شكل يمكن استخدامه، وهذا الوقت مختلف عن وقت الشبع.. فالتوقف عن تناول الطعام لا يجب أن يترك عند الكثيرين للمشاعر الحرة.. لأن الغالبية ستتناول كمية أكبر من حاجتها..

لدينا شهية توجهنا نحو الطعام المطلوب، لكنها لا تعبر بدقة عن النقص الكيميائي، تتأثر هذه الشهية بالرغبات التي تتشوه وتنحرف.. فمثلاً يستمر الأشخاص البدينون بتناول المواد الدسمة على الرغم من تواجدها بكثرة في أجسامهم، ربما لأن الطعام الثقيل العسير على الهضم يولد المشاعر المطلوبة عندهم، أو يقوم بدور معدي وعصبي مرغوب فيه..

ورغبة الأشخاص البدينين في اللياقة أو تخيف الوزن، سترتبط بقدرتهم على كبح رغباتهم وضبط سلوكهم الطعامي، وقدرتهم على تحمل ذلك الشعور الممض بالرغبة في الطعام، والتغلب على تلك المشاعر التي تطلقها الشهية، وهذا سيعني بالنسبة لهم تحمل قدر من المضض والانزعاج، و خسارة أحد أهم مصادر اللذة وربما السعادة، وفشلهم في غالب الأحيان كامن وراء شعورهم الدائم بالجوع، أو رغبتهم المستمرة في الطعام دون وجود تعويضات أو بدائل تكفي لتعديل تلك الرغبات أو إسكاتها، وهذه الرغبة ليست وليدة مرض عابر أو فشل نفسي أو ضعف وانحراف، بل هو ميل طبيعي وفيزيولوجي موجود وكامن في الإنسان وعند غالبية البشر، تسببت في وجوده حاجة البقاء والاصطفاء الطبيعي، الذي عمل عمله طيلة فترات طويلة كان فيها الأساس في البقاء هو القدرة على تمثل وتخزين الوارد المضطرب من الغذاء، أي الشراهة والقدرة على تناول ما يفيض عن الحاجة والاحتفاظ به واخترانه لأوقات الشدة.

هذا ما يجعل مسألة الرشاقة في عصر الوفرة الغذائية، وهنا أكرر ليس للجميع، مسألة مضادة للطبيعة البشرية، وهذا ما يجعل مسألة البدانة مسألة ميالة للتفاقم، وفي حال فشل محاولات الحصول على عقاقير مناسبة ستبقى مسألة الرشاقة مصدر تعاسة لأعداد متزايدة، (نلاحظ هنا أنه من الأفضل للعقاقير أن تعمل على مستوى الشحوم

المدخرة، ومستوى معدل الهضم والامتصاص، وبشكل نوعي لو أمكن.. لأن مسألة الطعام الأساسية تكمن في حاجة تفوق الضرورة، ورغبات تدعمها وتزيد منها.

من الحيوي في هذا المجال موضوع التربية الطعامية والعادات الطعامية.. التربية الطعامية بحيث نضمن ما أمكن عدم تشكل رغبات مرتبطة بتناول مفرط للطعام.. والعادات الطعامية (أي ما يتعلق بالنوع والكم وعدد الوجبات وطريقتها) التي يجب أن تدرس هي الأخرى.. ثم أخيرا الشروط المحيطة التي يجب أن نخفف منها كل ما يتعلق بموضوع الإفراط في الطعام، خاصة تقوية الاهتمامات الأخرى وملء أوقات الفراغ، هذا إضافة لتقوية الإرادة، وتأمين التعويضات، ودعم أنظمة الحميات، ووسائل حرق الطاقة المدخرة.

وعلى العكس من الشهية المفرطة والبدانة إن الصوم والامتناع المطلق والطويل عن الطعام يثير في الأيام الأولى جوعاً شديداً خاصة في أوقات الوجبات الاعتيادية، ويولد ضعفاً بدنياً وذهنياً، ثم آلاماً هضمية.. لكن ذلك يخف بعد عدة أيام بسبب انهيار مستوى الحس العصبي، لتظهر بعدها هذيانات الجوع مترافقة مع تدني القدرة الفيزيولوجية على التجدد والترميم، أي تنامي الدنف والضعف.. أما الامتناع المؤقت فهو يثير الرغبة في الطعام ويحرك الحاجة الجسدية مع ما يرتبط بها من رغبات، لتستعمر الوعي و تطغى على غيرها، ويندفع الصائمون للحصول على كل ما لذ من الطعام، مما يضر بغاية الصوم (أقصد تهذيب النفس والتسامي والابتعاد عن الشهوات) لتبقى فقط فائدة التعود على الصبر والتحمل.. بسبب الصوم تزداد الرغبات في الطعام وتزداد كميات الطعام ودسامته، مما يسبب زيادة وزن معظم الصائمين بدل أن يحدث العكس. لكن تهديد الجسد بالجوع، يذكر بذلك الخطر ويحرض وسائل اتقائه، أقصد التضرع والدعاء للرزاق وعبادته

وشكره، وهذا ما يحدث في شهر الصوم، الذي يتحول إلى شهر عبادة بامتياز، مع تحريكه لرغبات التملك وجشع زيادة الأسعار. ويجب هنا الانتباه إلى أن قدرة الصوم الكامل على حرق المدخرات الدهنية محدودة بسبب حاجة عمليات الاحتراق للماء وعناصر أخرى تكون عادة في الصوم الكامل محدودة وهذا ما يجعل الفائدة من الصوم في موضوعة الرشاقة ضعيفة إلى حد كبير. وهو ما تلمسه من زيادة وزن معظم الصائمين خلال شهر الصوم.

ولسنا هنا بصدد البحث عن الآثار المدمرة للجوع ونقص التغذية، ولا عن وسائل حل مسألة الجوع في العالم الذي يعاني من الوفرة والكساد، على أهمية ذلك بالنسبة لمن يعاني منه.

هناك كره مرضي لبعض أنواع الطعام، مرتبط بعقد خاصة وتكوين نفسي خاص، وهناك تولع معاكس شبيه. لكن في الغالب هناك ميل للطعام المعتاد ونفور من المذاق الجديد.. على عكس الجنس كما سنرى.. فرائحة الطعام وشكله وطعمه سيحرض عندنا ذكرياتنا عنه، وعن المتعة المحصلة في أوقات تناوله، مما يزيد رغبتنا به، في حين لا تحرك شهيتنا كثيراً رائحة وشكل الطعام غير المرتبطة شرطياً مع متعتنا خلال تجربتنا الطعامية.. لذلك تكرر الزوجة طريقة أمها في طهي الطعام، كما يميل الزوج أكثر لطعام أمه في بداية حياته الزوجية على الأقل. وينطبق هذا الحال على الطعام الغريب والطعام الوطني في حال السفر. فالميول الطعامية محافظة على الغالب.. على عكس الميول الجنسية:

الجـنـس:

رغم أن الممارسة الجنسية فردية (تحدث بين أفراد)، فإن الدافع الجنسي هو الأهم في صعيدين (دوره في تكوين الجماعات، وأثره على سلوك الفرد في الجماعة) فالحاجة الجنسية وما يتركب عليها من رغبات متعددة ومختلفة جداً، تشكل حيزاً هاماً وأساسيا في سلوك البشر المنضوين تحت خيمة جماعة ما.. حتى أن فرويد قد اختار بوابة الجنس للدخول إلى علم النفس.. لقد اكتشف فرويد النفس الإنسانية بواسطة الجنس، واختار لها التسميات الجنسية، وأسقط على مفاهيمه المعاني الجنسية حتى ظهرت وكأن النفس كلها ملونة بألوان الجنس.. كما أن حيوية الثقافات وقوتها تعبر عن نفسها في الطريقة التي تحل بها مسألة الجنس، وفي الحلول التي تقدمها لإشكالياته.. والمسألة الجنسية لا يجب أن تبقى في حيز العيب والممنوع التفكير فيه والممنوع الحديث عنه.. إنها تشكل في مجتمعاتنا أزمة خطيرة مهددة فعلاً على صعيد الفرد والجماعة.. حتى أنني أجزم أن غالبية المسائل المطروح على الوعي لها علاقة بالجنس، وغالبية سلوك الأفراد ذات أهداف جنسية مضمرة، أو تتعلق هي الأخرى بالجنس.

بحذف أثر الثقافة على الأطفال، نستطيع القول أن الدافع الجنسي يبقى عندهم ضعيفاً ومحصوراً داخل الذات ولا يتوجه الطفل عادة لاتخاذ شريك جنسي إلا في فترة متقدمة قريبة من سن البلوغ (لكن ربما كان هرمون التستوستيرون يزيد من حركة الطفل الذكر ومن ميله للعنف).. إن وجود بعض الأحاسيس الجنسية لا تشكل دافعاً قوياً يؤثر كثيراً في سلوك وتكوين النفس، وهنا يكمن جوهر النقد لنظرية فرويد، حيث يقحم الجنس في عالم الطفل، ويفسر كل التغيرات

والتحولات الأساسية التي تطرأ على تركيبته النفسية، تفسيرات جنسية بشكل محارب وفج، ربما حدث ذلك تحت ضغط النجاح الكبير والشعبية الكبيرة التي لاقتها أبحاث فرويد الجنسية، في زمن تحكمه الحاجة لتبرير الاعتراف بالجسد. لقد وفق فرويد في تقسيم المراحل الأساسية وتوصيفها لكنه لم يوفق بتبريرها الجنسي (ملكة القضيب) ولا بتسمياتها الجنسية (أوديب والخصاء).

في سن البلوغ يتمايز الجنسين، وهنا لا نستطيع أن نفصل أثر الثقافة بشكل كامل. وتظهر الحاجة الجنسية عند الرجال واضحة وصريحة (وهي ليست موجهة للمرأة حصراً، من هنا خطورة تشوهها و انحرافها في تلك الفترة لو تعرضت للكبت)، في حين أنها عند المرأة تبقى مبهمة ومغلقة.. وربما حاجتها للرجل لا تنبع مباشرة عن حاجتها للفعل الجنسي بقدر ما تنبع عن حاجتها للشريك الاجتماعي وتشكيل الأسرة وإنجاب الأولاد، حتى أن حاجتها الجنسية تتأثر كثيراً بحاجة الرجل وتتشكل عليها وبما يناسبها، فلا يتم عند النساء توظيف الأعضاء التناسلية أو تشكيل هيكلية السلوك الجنسي إلا بعد المعاشرة، ولا يصلن للنشوة إلا بعد خبرة ومران (ربما لغياب أو ضمور الأعضاء اللازمة لذلك) ومع هذا تبقى مجموعة الأعصاب هي تقريباً ذاتها المسؤولة عن نقل الأحاسيس عند الجنسين، وكذلك الهرمون المسؤول عن الشهوة والإثارة، أقصد الهرمون الذكري بنسب متفاوتة..

تبدأ العملية الجنسية بقرار دماغي ورغبة نفسية، وهذا القرار هو الذي يحذف تماماً وبفعالية عملية اشتهاء المحرمات (كالأخت والأم أو الأب أو الابن وغيرهم) وهو المسؤول عن عجز ليلة الزفاف، فالثقافة ذات أثر كبير على الحاجة والغريزة (وهذا ما يبرر معاقبة المغتصبين).. ثم تستمر العملية، بعد انطلاق شرارة البدء وتأشيرة السماح، حلقة عصبية حسية وعائية مع استمرار تدخل الدماغ باستقباله للأحاسيس

أو تدخله في الفعل. وتلعب المخيلة والصور الذهنية والمواقف والأصوات والكلمات والروائح والحركات والمعاني والأجواء المحيطة دورها في العملية الجنسية،، التي تنتهي بالنشوة.. وفي حين تبرد حاجة الرجل وتمر بفترة همود قد تقصر أو تطول.. لا يحصل ذلك عند الأنثى مما يعزز النظرة التي ترى أن الجنس عند المرأة رغبة أكثر منه حاجة، لكن إشباع الحاجة الجنسية عند الرجل وإكفائها، لا يعني تراجع كل الرغبات الجنسية المتعلقة بها، بل إن بعضها يستمر، فيستمر الانجذاب نحو الشريك أو بتجدد البحث عن شريك آخر، أو حتى عن الإثارة الضرورية لتسريع عملية تجديد الحاجة التي يتوجب عليها أن تحمل الرغبات التي لم تشبع..(وتظهر هذه المشكلة جلية عند المصابين بسرعة القذف) فنمو الرغبات وتضخمها يدفع باتجاه البحث عن وسائل تضخيم الحاجة بما يعنيه ذلك من ضرورة البحث عن وسائل الإثارة وهنا المشكلة.. فلو كان المطلوب إشباع الحاجة لوحدها.. لكانت العملية بسيطة وسهلة وكانت أشبه بفعل ميكانيكي كإفراغ البول مثلاً.. لكن نمو الرغبات وتعددها وتنوعها يجعل من الجنس مسألة مرغوبة وضرورية ومعقدة.. لذا تبدأ عملية البحث عن الإثارة والمثيرات لزيادة كمية الحاجة، وبالتالي لزيادة القدرة على إشباع أكثر للرغبات المرتبطة بها.. وهنا تكمن مشكلة الزواج.. فالشريك المتكرر حتى لو كان محبوباً لا يملك القدرة منذ البداية على إكفاء كل الرغبات.. ثم إنه يفقد بحكم الاعتياد قدرته على الإثارة (ولو كانت القضية قضية حاجة لكان كافياً وافياً.. لكن المشكلة في الرغبات والمشكلة في الإثاره الضرورية لزيادة المتعة، وزيادة كمية وعدد الرغبات المشبعة.. فنظام الزواج فاشل من هذه الناحية (الأديان اعترفت بذلك عندما وعددت بممارسات حرة ومتنوعة في جنات الخلد) فالدافع نحو التغيير، ربما لا يكون دافعاً نفسياً فقط، ربما كان ذو أساس بيولوجي تحتمه حاجة النوع لخلط البحرة

الموروثية، وربما كان مجرد رغبة في الوصول إلى أكبر عـدد مـن الشـركاء تكونت بسبب الكبت.. ولا شيء في الواقع يعادل قوة وأثر ومتعـة اللقـاء والتعـارف الحـر.. أو الـذي يجـري لأول مـرة.. **ففـي الجنـس يتعـارف البشر ويتبارون ويلعبون ويتـوادون ويتمتعـون ويتقـاتلون ويقتـل بعضهم البعض رمزيـاً، ويتمـازجون ويتشـاركون فـي أجسـادهم ويتبـادلون الأدوار ويتقاسـمون اللـذة.. وهـذا التلاحـم النفسـي الجسـدي له أثر كبير على النفس والسلوك، وهـو طريقـة هامـة لتلبيـة الكثـير مـن الرغبـات و لتصريــف الكثـير مـن الانفعـالات والتوترات.**

إن شكل ورائحة الشريك وأصواته سيشكلون مـع الزمـن محرضـات لذكريات العلاقة معه لكنها لا تعتـبر مثيرات كافيـة، فالإثـارة ترتبـط عـادة بالتجديد والاكتشاف، ويضعفها النعود والاعتيـاد.. والقـدرة علـى التجـدد مـهما اسـتخدمت مـن وسـائل هـي قـدرة محـدودة، وتزايـد الرغبـة فـي التجديد الضروري للاستثارة، قد يدفع للانحـراف عـن شـكل الممارسـات المألوفة، والاعتيادية. هنـا قـد يجـري البحـث عـن الإثارة خـارج الـزواج.. فالعلاقة الزوجية التي تفقد قدرتها على الإثارة ستحتاج لدعم اسـتثاري من خارجها، إن كان عبر الإفادة من السلوك الاستعراضي الذي يقوم به البعض.. أو عبر إقامة علاقات سـطحية معـهم كمـا فـي المشـاركة فـي الحفلات والرقصات الكفيلة بتوليد الإثـارة التـي تسـتخدم لتعويـض نقـص العلاقة الزوجية.. (في الحقيقة إن بعض أنواع الرقص يعبر عن نوع رمـزي من الجنس أو نـوع مـن الاسـتعراض الجنسـي) أو باسـتخدام التلفزيـون ومشـاهدة الأفلام المخصصة لذلك، وما شيوع هذه الأفلام وتزايد الطلـب عليها إلا دليلاً على ارتفاع نسبة الطلب على الإثارة والبحث عنها.

البعض لا يكتفي باستيراد الإثارة مـن غـير شـريكه، فيلجـأ للبحـث عن شريك آخر كالزواج من امرأة أخرى، ليعوض نقص الإثـارة وليجددهـا،

فيفع مع الزمن بما وقع به في الزواج الأول وكذلك الثالث والرابع.. وكل ذلك لا يعوض إلا بقدر جزئي، ولو قدر له أن يستمر على نفس الطريقة لنزوج مئات النساء وقد انتهي المطاف ببعضهم أن أصبح مزواجاً مطلاقاً إلى درجة السفاهة، وهذا ما كان يحدث عند السلاطين الذين كانت تعج بلاطاتهم بالنساء والجواري والقيان والغلمان.. (طبعاً ليس لإشباع الحاجة التي ربما تكفيها ربع امرأة.. بل لإشباع الرغبات التي قد لا تكفيها نساء الأرض)

ويخرج البعض عن دائرة الزواج، ويبحث عن المتعة خارجه، وقد تكون هذه الإثارة المستوردة من خارج مؤسسة الزواج الشرعي ضرورية لتدعيم العلاقة الزوجية، وقد تؤدي لنتائج معاكسة أو لمقايضة الرغبة بالمال، ضمن علاقة مصطنعة تفتقر للمشاركة والحب الكامن في التلاقي الحر النزيه المحرض برغبات صافية وصريحة..

في الجنس توجد أهمية للآخرين (غير الشريك)، فكلماتهم وأفعالهم وصورهم وحركاتهم وأصواتهم وحتى متعتهم يمكن تداولها واستعارتها وتوظيفها.. في الجنس يحدث تشارك في الإثارة، ومن الممكن تقاسم المتعة وتبادل الأدوار.. وتلعب نماذج الجمال والإثارة المأخوذة من الثقافة والمحقونة في الوعي، دورها أيضاً فصفات الأنوثة وحركات الإثارة وأزيائها، كلها عوامل ثقافية تؤثر بشكل كبير على مقدار الإثارة والرغبة والمتعة.. في الواقع لا أحد يرغب بممارسة الجنس مع شريك لا تنطبق عليه المقاييس المعتبرة.. لكن المشكلة تستعر عندما يصبح غالبية الشركاء المحتملين هم بسبب الثقافة النخبوية خارج المعايير المطلوبة.. المشكلة في ثقافة تركز على صفات جمالية فائقة لتجعل كل شريك دون الرغبة ودون الحلم.. وتزداد الأزمة في العروق التي تتبنى قيم جمالية مستوردة.. فمن أين نأتي في أفريقيا بنساء

شقراوات زرقاوات العينين.. إن أزمة الجمال العالمية التي تفتعلها الثقافة الاستهلاكية الغربية في غزوها الثقافي لباقي الشعوب، مسؤولة عن الكثير من التعاسة التي تعاني منها المرأة التي لا ذنب لها، سوى أنها بحكم تكوينها تخالف السوبر موديل الذي تتبناه شركات الإعلان.. وبالنظر إلى تعظيم دور الشكل في دور المرأة الجنسي المعظم هو الآخر، يحصل أن تخسر مجموعات كبيرة من النساء إمكانية كونهم نساء مرغوبات ومحبوبات بل تتحولن إلى مجرد بدائل خرقاوات لأخريات بعيدات المنال.. المشكلة في الرجال تبدو أقل.. حيث لا يلعب شكل الرجل ذلك الدور الذي يلعبه شكل المرأة في الثقافة السائدة الآن.

يبدو هنا أن الحجاب هو حل ممكن لهذه المشكلة فالحجاب يجعل دور الشكل محدوداً ودور التباري الشكلي معدوماً بين النساء.. وكذلك يلعب الاعتياد الزوجي دوره في قبول شكل الشريك الذي لا نعود ننظر لشكله بل لملامحه وتعابيره.. إن ثقافة الاختلاط ربما لا تكون مولدة للسعادة أكثر من ثقافة الاحتجاب من هذه الناحية.. لكن فصل الجنسين له أثر كبير على نوعية الرغبات والدوافع المتكونة، وهي تختلف بشكل كبير عن تلك المتكونة في حال الاختلاط.. إن ميل الرجل للقسوة والخشونة وقدرته على الكره والعنف أمر جلي في الحالة الأولى كما هو ميل المرأة للسلبية والبرود.. وبالعكس في الحالة الثانية حيث تزداد مرونة الرجل وليونته وميله للسلام والتسامح، وتقوى رغبة الأنثى ويتعزز دورها على حساب دور الرجل.

في الحقيقة النساء متشابهات في الجوهر.. والوظيفة الغريزية.. لكنهن مختلفات كثيراً في الشكل.. (ذات الشعر الطويل وذات العيون الكبيرة وذات الابتسامة الساحرة والتي ترندي.. وما إلى

دلك).. **ولما كانت الرغبات المتعلقة بشكل المرأة أكبر بكثير من الحاجة المتعلقة بجوهرها.. لذلك تفوق الشكل على الجوهر في المرأة وصارت مدفوعة نحو السخافة**، أقصد التركيز المفرط على الشكل وإهمال ما عداه..

إن تدني الحاجة أو غيابها بسبب المرض أو الهرم، سيوقع في مشكلة عدم القدرة على إشباع الرغبات التي تستعر وتقوى.. فالحاجة الجنسية ضرورية كحمال لحمل الرغبات في طريقها نحو التحقق، وفقدان العربة سيوقع في أزمة.. **وهذا ما يحصل عند المسنين الذين تقوى لديهم الرغبة وتستمر مع ضمور الحاجة..** فيطبع سلوكهم السعي الدائم وراء المقويات والمنشطات التي هي الأمل الوحيد المتبقي لهم في إشباع رغباتهم المحبطة. فالحرمان الذي يعانيه الشخص الهرم أكبر بكثير من ذلك الذي يتعرض له المراهق الصغير.. **والحب الذي يبدأ في العادة عذرياً يقدر له أن ينتهي عذريا كما بدأ**، رغبات بلا حاجات.. بل تزداد قوة الحب مع تدني فعالية الحاجة وبالرغم منها..

أما فيما يتعلق بتشكل الرغبات الشاذة، فذلك لا علاقة له بالحاجة، بل بالرغبة فقط، التي تشكلها التربية والشروط، ففقدان الشريك من الجنس الآخر هو الذي يدفع لاستخدام شريك من نفس الجنس يقوم بلعب دور بديل عن الجنس الآخر، حيث يقوم القوي عادة بلعب دور جنسه الأصلي والضعيف بلعب الدور الجنسي المخالف، وبينما تنمو الميول المثلية عند الأول تنحرف الرغبة عند الثاني ويتم إشباع الحاجة عنده بطريقة معاكس لجنسه، وتتكون رغباته حول هذا الطريق وعليه.

لكن لبس الشذوذ كله بهذا الوضوح، هناك شذوذات أقل، وهناك شذوذات في الرغبات، وهناك رغبات يمكن اعتبارها شاذة.. وهناك

درجات كثيرة تفصل بين ما نعتبره طبيعياً وشاذاً.. لكن كل الأشكال (مهما تكن مختلفة وبغض النظر عن كونها طبيعية أو شاذة) تعتبر طرقاً ممكنة لإشباع الحاجة والرغبات المتشكلة عليها.. وليس من الضروري إجراء مقارنة تفضيلية بينها، لأن هذا التفضيل هو ذاتي إلى حد كبير، وغير عملي بعد تشكل الرغبات التي أصبحت تطلب الإكفاء.. لذلك لا تهتم المجتمعات الغربية الحديثة بطريقة إشباع الرغبات والحاجات الجنسية، ولا تقيم الاعتبار لكونها شاذة أم طبيعية طالما أنها تجري بالقبول والتراضي بين البشر. فلكل إنسان الحرية الكاملة في استعمال جسده كما شاء وأراد ولا أحد يستثمر مادياً أو معنوياً في أجساد الآخرين أو في سلوكهم الجنسي.

إذا كان الدافع للطعام أساسياً للحفاظ على الحياة، فإن الدافع الجنسي أساسي للتكاثر والحفاظ على النوع، وهو أساسي أيضاً في تكوين الجماعات، ليس في ذلك الاتصال الجنسي لوحده بل ما يترتب عنه أيضاً من حمل وإنجاب وأمومة.... وإذا ابتعدنا قليلاً عن المرحلة الوحشية فإن القطعان والقبائل البشرية الأولى كانت تخضع لروابط عضوية وظيفية تلبي حاجات غريزية أولية.. كحاجة الذكور للإناث وبالعكس، وحاجة الأولاد لأهلهم، وحاجة الجميع للتعاون على الصيد والدفاع.. في تلك المرحلة لا يمكن تصور ضوابط تضبط الجنس سوى تحققه البهيمي المحكوم بالغريزة لوحدها. لكن تقدم شكل الحياة الإنسانية مع تطور وعيه وأدواته.. خلق انتظام اجتماعي مختلف نوعياً.. القبيلة في حالة الرعي والصيد والقرية بعد تطور الزراعة.. في هذه التجمعات الكبيرة نسبياً لا تعود العلاقة بين الفرد والجماعة خاضعة مباشرة وفقط للفزيولوجيا.. بل تصبح مضبوطة بما يمكن تسميته بدايات لضوابط اجتماعية (سياسية وثقافية).. عرف وعادات ومفاهيم ترعاها

قوة تحافظ على تماسك التجمع.. حتى في تلك المرحلة لم يكن التحريم الجنسي هو السائد.. بل كانت الغريزة حرة إلى درجة كبيرة والأنثى ذات موقع قوي فيها.. من حيث ملكية الأولاد وحق اختيار الشريك، لكن ربما بدأت في هذه المرحلة عملية تحريم الأم والأخت كتعبير عن تقسيم العمل، أو لتخفيف الصراع داخل الأسرة، خاصة بين الأب وأبنائه الذكور، وربما تأخر ذلك التحريم حتى المرحلة اللاحقة.. فمع تطور الأدوات ووجود الفائض ووجود الملكية الخاصة للأدوات أو للمنتجات الفائضة، تغير دور الذكر القوي وسيطر بقوته على الأنثى وأخضعها وحاول امتلاكها مع ما يمتلك معتمداً على قوته ثم على السلطة الذكورية التي بناها متعاوناً مع أقرانه.. **مع نشوء الملكية الخاصة صارت ملكية البشر المهزومين والضعفاء مفيدة بسبب إمكانية اقتطاع ما يفيض من إنتاجهم عن حاجتهم للبقاء.. وتحول قسم من البشر للقيام بدور مشابه لدور الحيوانات الأليفة المدجنة.. لقد استطاع الرجل امتلاك المرأة وتسخيرها في خدمته**، ثم امتلاك أولادها، ومع ذلك لم تظهر درجات التحريم الجنسي إلا رويداً رويداً مع تطور نظام العبودية ذاته، في البداية تم تكريس ملكية العبيد والنساء والأولاد، هنا تظهر عملية تحريم الأم والأخت ليست كعملية تحريم جنسي بل كتحريم اقتصادي: أي كوسيلة لمنع الصراع بين الأب وأولاده وبين الأخوة على ملكية الأخوات..

في النتيجة وبعد طغيان نظام القوة والحيازة بالقوة والتملك بالقوة صارت النساء مملوكات.. وصارت أجسادهن مملوكة، و تراجع نظام العلاقات الجنسية الحرة السابق، ليحل محله نظام استثمار الملكيات، والمرأة المملوكة بالنظام الجديد صارت تستثمر اقتصادياً وجنسياً في نظام جديد اسمه **نظام الزواج** في شكله العبودي القديم، لم تكن الأنثى أكثر من شيء مملوك للرجل الذي يقوم بربطها بالسلاسل

والجنازير والحلقات والأساور، مثلها مثل العبيد كي لا تهرب، بعد أن تمكن من أسرها وتكبيلها.. وفقد الرجل حقه في استعمال نساء مملوكات لغيره بدون إذنه كما فقد حق امتلاك أولاده من النساء المملوكات لغيره.. **فنظام الزوج هو نتاج المرحلة العبودية وهو في الأساس نظام استعباد الرجل للمرأة.**

ومع ذلك صمدت المرأة وصمدت الأم بقوتها وخصوبتها وحنانها، وفرضت احترامها على الرجل وعلى أولاده وأجبرت المجتمع الذكوري على الاعتراف بقوتها، كما لم يكن من الممكن الاستهانة كثيراً بقوة رابطة الحب التي تتولد في العلاقة بين الرجل والمرأة.. فكانت المرحلة اللاحقة من التطور الحضاري تشهد العودة التدريجية لتعزيز دور المرأة الذي وصل للحضيض مع طغيان النظام العبودي.. ورويداً رويداً بدأت النظم والعادات تتطور ويتعزز دور المرأة وتتحسن شروط عبوديتها حتى تمكنت في النهاية من تحويل الرباط العبودي الذي فرضه الرجل عليها إلى نوع من الرباط المقدس، يلتزم به الرجل كما تلتزم به المرأة، ويشمل الشكل الوحيد المسموح به لإقامة العلاقة الجنسية، وذلك ترافق مع نشوء وتطور النظام الإقطاعي الذي تميز بتطور الأسرة البطريركية وتشكيلها النواة الأساسية للوجود الاجتماعي..

صار الهيكل الأساسي للمجتمعات يتكون من مجموع الأسر الكبيرة المحكومة بقانون القرابة، وبسلطة الذكر الأكبر، والتي تقدس رابطة الدم وبالتالي الشرف والإخلاص والعفة والطهارة الجنسية.. لقد هيأ هذا الشكل البشرية لمرحلة جديدة أكثر تحضراً ورقياً، وقد كرست الأديان التي نشأت في هذه المرحلة تلك القيم والعلاقات وبقتها ونزهتها ورعتها.. المرحلة الإقطاعية شهدت انتقال وسيلة الإخضاع العبودي بالقوة إلى وسيلة الإخضاع الديني بالقناعة.. وتحولت الإمبراطوريات من إمبراطوريات محكومة بالبطش إلى إمبراطوريات دينية

تحكمها نظم وعقائد.. وبفعل هذا الانتقال تعزز نظام الزواج وصار هو العش المقدس المهيأ لنشوء أولاد سيخضعون لتربية قاسية.. وتم تحريم الاختلاط الجنسي، وتحولت الغاية من ممارسة الجنس من المتعه إلى خدمة الغايات الاجتماعية، والنظام الاجتماعي.. لكن التعدبل على نظام الزواج العبودي لم يلغي جوهره وأصله العبوديين.. لقد بقيت المرأة شيئاً خاضعاً للرجل..وصار امتلاكها لا يتم بالخطف والسبي كما كان، بل ربما بشيء شبيه بالشراء الذي يتم بالتراضي، وتحولت أصفاد المرأة التي تدل على عبوديتها وخضوعها للقوة إلى قيود رمزية ذات قيمة مادية ترمز لتحول وسيلة الامتلاك من القوة إلى المال.. إن السلاسل والحلقات والأساور والخلاخيل تذكرنا بدورها العبودي القديم، وعندما نصنعها من المعادن النفيسة لا نلغي دورها كأداة تملك بل فقط نشير لتغير تلك الطريقة من السبي والخطف إلى الشراء الحضاري.. فالمهر هو ثمن رقبة المرأة.. والحلي التي تتباهى فيها هي دليل عبوديتها بالشراء. أما غياب حقها في طلب الطلاق وحاجتها لولي أمر يزوجها، فهي بقايا عبوديتها مهما قيل عن ذلك ومهما جرى تبريره.

لقد صار الرباط الذي يربط المرأة ليس قيداً في عنقها أو يديها أو آذانها أو أنفها أو قدميها، بل صار رباطاً تربوياً أخلاقياً يزرع فيها ولا يقل قوة عن ذلك الرباط الخارجي ولا يغير دوره.. لقد صار المجتمع كله يخضع لمجموعة هائلة من النظم والتقاليد والعادات على درجة كبيرة من القسوة والقوة... لقد صار التحريم هو الأساس بعد أن كانت الحرية، وصارت الحضارة تقاس بقدرة المجتمعات على توظيف واستثمار المسألة الجنسية.. وصارت الحرية تعني الفوضى وانهيار النظام، ولم يكن مقبولاً التسامح مع مخالفة الشريعة، لأن ذلك كان يعني العدوان

المباشر على الجماعة، وتهديد جدي لنظامها وتماسكها القائم على نظام رابطة الدم والعفة والشرف.

ما يميز العقيدة هو ذلك الرابط الداخلي الصارم، وقوتها تقاس بمدى فعالية أدواتها و قدرتها على تكوين القناعة وعلى توجيه السلوك.. لذلك استخدمت الأديان كل أسباب القوة، بدءاً بالمعارف والأساطير والعقل والمنطق ومروراً بالميتافيزيك والسحر والتخيل والرعب الميتافيزيقي.. وصولاً لاستغلال العاطفة والقوة البلاغية والشعرية والفنية والأدبية، في مزيج عجيب ومتماسك من المعارف والطقوس والأهلاس والأحلام لا يجمعها سوى الحاجة إليها ودورها في تسريع الوصول إلى درجة أعلى فعالية من العقائد.. في النهاية أصبح نكران الجنس والمتعة الجنسية من كبرى الفضائل.. و اعتبر التخلي عن الجنس كوسيلة لتعبد الآلهة (الرهبنة).. و العذرية التامة والطهارة الدائمة والتضحية بالجنس تقرباً منها، وهذا أمر وارد في الثقافات التي تنتمي للمرحلة الإقطاعية حيث يقتصر دور الجنس ووظيفته الدينية على واجب الإنجاب فقط، وتتقلص وظيفته في المتعة وصولاً لدرجة الإنكار التام.. وهذا التجاهل المستمر للحاجة، ليس أمراً عسيراً جداً على المرأة، كما هو على الرجل، الذي تستمر الحاجة عنده في إلحاحها عليه وتسبقه نحو الأحلام، وتهيئه لخطورة الانزلاقات الخطرة نحو اجتياح سياج المحظورات، وربما تطبع سلوكه بصفات غير مألوفة.

بعد هذا الإنكار المفرط للجنس كانت مرحلة جديدة في الانتظار.. فمع بداية الثورة الصناعية، بدأت قوى جديدة تدك حصون النظام الإقطاعي القديم، ليحل محله وتدريجياً النظام الرأسمالي ولتدك معه كل النظم والضوابط التي رافقته ودافعت عنه ووطدته.. صار على العالم مع انتشار الرأسمالية أن ينظم نفسه بشكل جديد: تنامى دور الدولة، وتراجع دور العقيدة، وانهارت الأسرة البطريركية، وفقدت دورها

الاجتماعي والاقتصادي، ودخل الأفراد الأحرار المتساوون كعناصر أولية في تشكيل (الأمة _ الدولة) وانهارت قوة العرف والتقاليد، وضعف دور الأسرة حتى صارت أشبه بالعش الذي تعيش به الأم والأطفال، و لم يعد يرعاها سوى مشاعر الحب وواجب الالتزام بالأطفال..

لقد شهد العصر الحديث تغيراً جذرياً فيما يخص مسألة ضبط الجنس، يعتمد هذا التغير على عنصرين.. الأول هو انهيار دور الأسرة الاقتصادي بفعل الرسملة.. ثانيهما هو تطور الطب وظهور إمكانية فصل المتعة عن الإنجاب.. صار من الممكن الحصول على المتعة دون مخاطر تذكر على المجتمع وعلى الأطفال.. وصار من العسير على الثقافات التي تقدس الرابطة الزوجية أن تقنع أعداد المتزايدة من البشر صاروا يعيشون حياتهم الجنسية بشكل متزايد خارج مؤسسة الزواج.. خاصة في الدول ذات الرعاية الاجتماعية المتطورة التي تضمن حق المرأة في العمل وحق الطفل في الحياة الكريمة.. و خاصة بعد انخفاض معدل الولادات بدرجة كبيرة، بسبب انخفاض معدل وفيات الأطفال بدرجة كبيرة أيضاً بسبب التقدم الطبي، حيث لم تعد المرأة تمتلئ وتتفرغ باستمرار في خدمة بقاء الجنس البشري، بل صارت تقوم بهذا الواجب الثقيل المزعج على أضيق نطاق، وتحت رعاية طبية واجتماعية وتشجيع رسمي وشعبي.

ليس من المفيد إنكار ذلك التغير وليس من المفيد عدم توضيحه.. إن الموقف العقائدي الأيديولوجي أياً كان عليه أن يأخذ بالوقائع، وإلا كان كمن يدفن رأسه في التراب.. حتى في مجتمعاتنا فالمسافة التي قطعتها تلك المجتمعات في ذات الطريق لا يستهان بها، وما نرفضه اليوم نقبل به غداً، وما رفضناه بالأمس قبلناه اليوم، حتى لتبدو المسألة وكأنها مسألة وقت، وقت لن يطول حتى نلحق بأغلب أمم الأرض، التي تخلت عن أنظمتها التقليدية مرغمة تحت ضغط التغيرات

الاقتصادية الحتمية، ولم تجد في ذلك التخلي تخلياً عن هويتها وأصالتها ودورها الحضاري.

هناك عامل ثالث في هذا الإطار (أقصد التحلل والتحرر الجنسيين) هو ظهور وسيادة ثقافة رأسمالية فردانية تشجع اللذة، بهدف زيادة الاستهلاك (فالإنسان الرأسمالي يُنْظرُ إليه أولاً كمستهلك.. (**قل لي ماذا تستهلك أقول لك من أنت؟**) فراكبي الفورد ومستعملي الإنترنت والجوال.. ومصطافي هاواي.. ومدخني المارلبورو الأبيض ذو الفاتر الأبيض..الخ.. كلها انتماءات تبدو أقوى من أي انتماءات أخرى في هذا الزمن الاستهلاكي.. فعملية الإنتاج الرأسمالي تبدأ بالاستهلاك وتشجيع الاستهلاك وتأجيج الطلب، ثم يقوم الإنتاج بتلبيته، في الرأسمالية يجب تشجيع الفرد على كل أنماط الاستهلاك الضرورية منها وغير الضرورية.. ويجب أن يتلذذ ليشتري، يجب أن نشجعه على اللذة، ونزيل من أمامه كل معوقات هذه اللذة، من مخاوف وعادات و مثل وحتى قيم وأفكار.. يجب أن يتلذذ أكثر ليشتري أكثر لبعمل أكثر وينتج أكثر فيربح الآخرون أكثر، ذلك هو قانون الحياة الرأسمالية (العبودية للربح)..

أيضاً يجب أخذ دور تطور وسائل المواصلات والاتصال بالحسبان وتطور العلوم والمعارف واضمحلال دور الميتافيزيك والسحر.. كلها عوامل لعبت دورها في تدني فعالية الفلسفات والعقائد التقليدية لتفسح المجال لنمو فلسفات وعقائد جديدة تشجع ما كان ممنوعاً وتحلل ما كان محرماً.. لتتحول عملية التمسك بالقيم القديمة إلى خوف مرضي من الجنس ليس له ما يبرره في الصعيد العملي الذي مر به وجربه الآخرون الذين لم تتأثر حياتهم بسبب تغيير نظمهم واستراتيجياتهم وتكنيكاتهم الجنسية السياسية من الضبط إلى الحرية.

لكن المشكلة تحدث عندما تكون الثقافة على تضاد مع البناء التحتي، أو عندما تسود ثقافتين.. أو ثقافة تتصف بالتناقض.. ثقافة علنية تثبت الأشكال التقليدية وثقافة فعلية تحرك الدوافع وتشجع السلوك الخفي المناقض للعلن.. مرحلة عدم نضج النقد الموجه للثقافة القديمة، وعدم قدرة الثقافة القديمة على التأثير في صعيد الواقع والسلوك المعاصرين.. عندما نقوم بضخ قيم ثقافية قديمة معلنة، تتناقض مع ما تعطيه التجربة من خبرات ونتائج، فيحدث افتراق بين التلقين والتجربة، بين المعاش وبين الأنا المزروعة بالتربية.. يؤدي إلى اضطراب سلوكي وتشوه مفرط في التوازن النفسي.. وهذا ما يحدث الآن حيث نشاهد كل أنواع التشوهات السلوكية ونلمس تعايش أنماط مختلفة من السلوكيات توحي بانهيار مفعول الثقافة (أي ثقافة) وسيادة الفوضى والاضطراب.

ومن هذه الزاوية لا يمكن اعتبار الثقافة المعلنة هي الثقافة الشغالة في النفوس، بل فقط تلك الثقافة المتثبتة في الأنا الأعلى والحاكمة الفعلية للسلوك والتي قد تتناقض بشكل مستور مع ما يعلن.. نحن نسأل على ماذا يؤنبنا ضميرنا وعلى ماذا نتندم ونتحسر.. نحن نسأل عن ذلك الذي يجري في الصمت والخفاء.. هنا يظهر المعبود الحقيقي.. والحاكم الحقيقي الذي يحرك سلوك البشر.. إنه بدون شك الرغبات المادية والجنسية، بشكل أكبر وأقوى بكثير من الأخوة والتضامن والتضحية ونكران الذات وخدمة القيم التي ندعي.. هنا يظهر تناقض الثقافة وتعاستها.وتناقض الفرد وتعاسته أيضاً: يريد الجنس ويشغل كل وقته في الحصول عليه ثم يشجع الضوابط والروادع التي تحول دون ذلك.. ما هذا التمزق العقلي والسلوكي!؟.. يبحث في التلفزيون عن كل ما يحب ويشتهي، ويمارس في السر كل الطرق التي تولد له المتعة.. ثم يجلس مع الآخرين ويدعي التمسك بأدق

التقاليد والشكليات المتفق عليها.. هذه المرحلة تمر فيها الثقافات الشمولية المتماسكة بشدة عندما تقتحمها قوى التغيير، لأنها ثقافات تربط كل الأشياء ببعضها.. إنها لا تتجدد إلا بالنفي.. وهذا النفي لا يتم بدون صراع وألم.. هذه الضريبة لا بد منها.. ولطالما احتفظ القديم بأشياء مرغوبة وما تزال فعالة لا يجب التضحية بها، لذلك توجد القوى المتثبتة فيه والتي تعرقل تغييره، مبررها ومنطقها..

المشكلة في مجتمع تبنى ثقافة جنسية تنتمي لمرحلة سابقة، وتعبر عن نمط مناسب للحياة البدوية التي تعاني شظف العيش وقساوة الطبيعة.. حيث لا تسمح الظروف ولا الموارد بالزواج وإنجاب الأطفال، إلا بعد ضمان إمكانية معقولة أمامهم للحياة والاستمرار.. فلا يتزوج الفتى إلا بعد أن يصبح مقاتلاً قادراً على الدفاع عن ما يملك وقادراً على دفع المهر.. أي في بيئات لا تملك إمكانية اعتماد أية درجة من التسامح في موضوعة الجنس، حيث الاستقرار فيها يتطلب ارتفاع الشرف إلى أعلى مستوياته.. فيصبح أغلى من الحياة ذاتها ويصبح زهق الأرواح حفاظاً عليه أمراً روتينياً وعادياً.. مما كان يعزز وجود وتطبيق نظام احتجاب كامل لم تشهده إلا البيئات الصحراوية القاحلة، يفصل فصلاً تاماً بين الرجال والنساء الذين لا يحجبهم عن بعضهم سوى أقمشة الخيام.... فأي مخالفة للتقاليد ستتعرض لكل أنواع القمع لأنها ستعرض السلام والتضامن للخطر داخل العشيرة المهددة دائماً بكل المخاطر.. إن تبني مثل هذا النظام في الظروف الراهنة ومع تغير أنماط الحياة يجعله يعاني من تآكل مستمر وسريع تحت ضغط المتغيرات.. يصبح التمسك به كنوع من الثبت الثقافي الشكلاني، بالنظر لتغير الشروط والظروف التي ولدته وعززته وبررته.. ما نشهده اليوم هو تمزق خطير في بنية النفس وفي نظام المجتمع وفي ثقافته.. وأخطر ما في حياتنا هو تعرض جيل الشباب لدرجة عالية من التحريض والاستثارة مع

درجة عالية من الكبت.. مما يمزقهم ويجعلهم فاشلين في كل سلوكهم، ومهددين ليس فقط في خرق العادات والعرف، بل بالتحول نحو تصريف التوتر والكبت عبر التزمت الفكري والإرهاب السياسي.. أو الفاشية الاجتماعية..

إن الدعوات لإلغاء التلفزيون والهاتف والراديو ووسائل الحضارة الحديثة، تصبح مفهومة ومنطقية ومقبولة إذا أردنا المحافظة على ثقافتنا وتقاليدنا القديمة.. إنها بالفعل مكامن خطر وبوابات عبور لنمط جديد من الحياة يستحيل عليه التعايش مع ما ندعي الرغبة في الحفاظ عليه.. إن كل محاولات الاعتدال وأخذ المواقف الوسط تبدو مع مرور الأيام واتضاح المسار وكأنها عمليات توريط، وتسلل سري لاختراق الحصون العالية التي تقيمها الثقافة القديمة في وجه التغيير والتحديث.. إن نمط الحياة الحديثة التي نعيش لا يتلاءم ولا يتكيف مع نمط الثقافة التقليدي.. والمحافظة عليهما معاً هو الذي يخلق تلك الدرجة من الإرباك، وذلك المستوى من الكبت، وتلك النسبة من الفشل بين الشباب، وتلك النسبة من الانحطاط الاجتماعي والخلقي والعملي، الذي ينعكس على شكل انحطاط سياسي واقتصادي ينتشر ويسود في مناطق انتشار ثقافات قوية متحجرة تجيد الدفاع عن نفسها ضد قوى التغيير.

الراحة واللعب والتسلية:

اللعب عند الأطفال حاجة فيزيولوجية ورغبة نفسية أيضاً، كما أن الحركة والركض والتسلق والمصارعة حاجة جسدية عنده.. الطفل ينتمي إلى عالم اللعب وليس إلى عالمنا نحن، يجرب في عالمه الخاص مفاهيمه ويختبر قدراته ويبني خيالاته.. وعندما نجبر الطفل على أن يعيش معنا يعيش كما يعيش الغرباء.. لا نكسبه ولا يكسب هو نفسه بل نخسره ويخسر هو نفسه.. إن أحد أهم أخطاء التربية هي حرمان الطفل من اللعب، حتى أن وسائل التعلم الحديث تسعى لإدخال المعلومات عن طريق الألعاب، فالطفل يلعب باهتمام وانتباه وتركيز يفوق كل ما يتظاهر بإبدائه عندما نجبره على حضور الدروس التقليدية... وإذا خسر الطفل طفولته يتشوه وتنشأ عنده رغبات طفلية تحاول أن تعوض عن نفسها في مراحل لاحقة.. فتظهر على سلوكه عدم الجدية وعدم المسؤولية والصبيانية.. أي أن من يخسر طفولته يخسر رجولته.. التي تحتوي على ما تبقى عنده من دوافع طفلية تريد أن تتحقق على شكل مشوه في مرحلة متأخرة.. وعندما تعلن لائحة حقوق الطفل حق الطفل في اللعب.. إنها تعني أن المجتمع الذي يفشل في تأمين الشروط الضرورية لطفولة سعيدة، ستنمو عنده التعاسة وتترعرع..

واللعب غير محصور في الصغار، الكبار أيضاً يلعبون وهم بحاجة إلى اللعب.. اللعب ساحة مجانية للتجريب ولتنفيس الرغبات الغير لائقة، ساحة اللعب هي منزل النفس ومكان راحتها من عناء العمل وهي ضرورية للحفاظ الجدية في ساحة العمل، وتحقيق التوازن النفسي المطلوب.

أما التسلية والترفيه والراحة فهي الشروط التي تتجدد بواسطتها القدرة على العمل الجاد والعطاء.. وهناك ضرورات لوجود فترات راحة وتسلية ومرح، تتيح الفرصة لرغبات ودوافع لا تستطيع تحقيق نفسها في العمل أن تتحقق خارجه، ولا يمكن عملياً الحصول على إنتاجية جيدة بدون تلبية الحاجة للراحة والترفيه.. إن الشعور بالملل والتعب والضجر هو مؤشر نحو تدني الإنتاجية.. وهذا ينطبق على العمل الجسدي والذهني على السواء. ومتعة الراحة واللعب والترفيه متعة يجب الاعتراف بها عند الكبير والصغير ويجب عدم الإقلال من أهميتها ودورها النفسي الهام في موضوعة السعادة.

وكما أن الراحة والتسلية ضروريان فإن الفراغ مدمر على نحو كبير، إنه يقتل بالإنسان الشعور بالقيمة والوقت.. ويجعله يصرف رغباته بالعمل عن طريق التسلية، فيقوم بتشويه اللعب فيفقد متعة اللعب أيضاً. تصبح المشكلة في عمل يخلو من الجدية أو هو نوع من التسلية، أو في تسلية بديلة عن العمل عند من يتظاهرون أنهم يعملون.. ثم عندما يلجئون للتسلية فيتسلون بطريقة متعبة ومرهقة.. وسمجة

العمل حاجة وضرورة والتسلية كذلك.. والعمل غير الجاد كما هي التسلية غير الحقيقية كلاهما يلعب دوره السلبي بطريقته.. فالسعادة في الراحة بعد التعب والجد بعد التسلية. وكل عمل لا يستنفز طاقات الإنسان المختلفة لن يقوم بدوره، وكل تسلية لا تقوم بدورها ستؤثر على إنتاجية العمل وعلى مستوى المتعة والرضى المحقق. فالبطالة كما هو العمل الروتيني المضجر والطويل هما أسباب تولد التعاسة على نطاق واسع.

وعندما نلعب ونتبارى لا نحقق فقط رغبة التسلية والترفيه بل رغبات أخرى في التنافس والتصارع والاحتكاك والحركة وبذل الجهد.. وممارسة الرياضات المختلفة تحقق رغبات كثيرة في الشعور بالنشاط

والقوة، أو في التنافس والفوز، أو في ممارسة العنف.. أما متعة مشاهدة المباريات ومتابعتها فهي تختلف كثيراً عن متعة اللعب والرياضة، إنها نوع من المشاركة الرمزية ونوع من المسرح الموسع الذي يشيع اليوم بسبب فقر الحياة المسرحية، ونوع من التشويق والدراما.. نحن نشارك اللاعبين ونخوض معهم المباراة نتعاطف معهم ونتفاعل معهم، لأنهم يدغدغون فينا رغبات في التباري والفوز والعنف والقوة، ورغبات في التحزب والتشارك الجماعي.. إنها معارك رمزية ورهانات نخوضها رمزياً بواسطة لاعبين لهم دلالة رمزية كبيرة عندنا.. وتلبي تلك المشاهدة رغبات عند المشاهدين استغلتها أجهزة الإعلان ووظفتها ورفعتها فوق كل أنواع الفنون الأخرى التي ربما تفوقها دلالة ومعرفة كما سنرى.

السياحة:

تزداد أهمية السياحة بشكل كبير وواسع بسبب تطور وسائل النقل، وتزايد الفائض المالي، وربما تزايد البطالة أيضاً وربما تصبح هي متعة العصر القادم، فهي تجمع بين الراحة والتسلية وبين المعرفة والتعارف والإطلاع.. الإنسان يسافر ويخرج من الروتين ويغامر ويتعب ثم يرى ويتعلم ويتمتع فكل جديد ممتع وجذاب ومسلي.. نحن لا نتعرف فقط على الحاضر ولا على الطبيعة بل على البشر في الحاضر والماضي أيضاً. نحن لا نخرج من الرتابة والملل بل نتعلم ونتعرف ونتسلى ونلعب أيضاً.

لذلك يجب أن تلعب السياحة دورها في كل استراتيجية تهتم بموضوعة السعادة.

متعة العمل:

كل تحول من صعيد الصورة والفكرة إلى صعيد الوجود هو عملية ممتعة، إنها سعادة القدرة على التأثير والإبداع و الخلق، وبالتالي سعادة القدرة على تأمين الوسائل الكفيلة بتلبية الرغبات.. فمتعة العمل تنبع من كون هذا العمل وسيلة أساسية لتلبية الرغبات والحاجات.. والعمل الإنساني هو الفعل المسبوق بتصميم وإرادة وتصور للنتائج.. إنه سلاح و إمكانية وقوة.. لذلك فهو متعة، متعة القدرة على الفعل والتأثير ومتعة القدرة على تأمين متطلبات العيش والسعادة.. وكل قدرة وكل إمكانية ستشكل قوة وضغط.

هناك شيء نسميه قوة الإمكانية، كما يشعر الشاب بقوته وقدرته، و كما تخرج الشابة من بحر العذرية إلى شاطئ الجنس باحثة عن الأسرة والإنجاب.. كما يشعر المتعلم بالرغبة في ممارسة علمه، وكما يشعر القوي بالرغبة في استعمال قوته.. فكل إمكانية هي بذاتها قوة ولها ضغط باتجاه التحقق.. وهذا ما يعطي السلعة قوتها وسحرها، فهي تحمل في داخلها إمكانية إشباع رغبة، وهذه الإمكانية هي التي تجذب المستهلك وتشده، وهي الوسيلة التي يستعملها المعلنون والعارضون لتشجيع الاستهلاك. من يملك القوة ومن يحمل البندقية ومن يحمل الشهادة ومن يملك الخبرة،كل أولئك تدفعهم مقدرتهم، فكل مقدرة هي احتقان وتوتر بحاجة لإفراغ، ولهذا الإفراغ سعادة خاصة هي سعادة المفكرين والعلماء والشعراء والكتاب وكل المنتجين مادياً ومعنوياً.. الذين يجدون الفرصة لتنفيذ ما يريدون وفعل ما يستطيعون.

وقدرة الإنسان على الصنع والإبداع والخلق تدفعه من تلقاء نفسها، بغض النظر عن حاجته للعمل وضرورة ذلك العمل من أجل إسكات الرغبات والحاجات، وهذا الجانب الخاص بالعمل أقصد متعته

الذاتية هي التي أركز عليها وليس منعته كوسيلة لتلبية كل ما يحتاج البشر من ضرورات (أي العمل كهدف ومتعة بحد ذاته وليس كوسيلة في خدمة أغراض أخرى وغايات أخرى ممتعة. فحتى لو تأمن كل شيء بطريق أو بآخر فإن متعة العمل تبقى. أقصد العمل كرغبة في ذاته وبحد ذاته ومن أجل ذاته، الرغبة في الخلق والصنع والتأثير في الطبيعة، فطالما أن الإنسان يملك القدرة فسوف تتشكل لديه الرغبة وسوف يحقق من ورائها المتعة). بالعمل طور الإنسان نفسه وميزها عن بقية الكائنات، بالعمل يحقق الإنسان تفوقه وإنسانيته كقادر على الخلق، إنه بفعل الخلق أي الصناعة ابتداء من فكرة وتصميم وتصور مسبق يحاكي ما تفعله الآلهة.

كانت الأيديولوجيات الاشتراكية قد ركزت على متعة العمل في مواجهة متعة التملك، لكنها لم تميز بين العمل الخلاق المدفوع برغبة العمل، وبين العمل العبودي الذي هو جزء من استلاب الإنسان وتحويله لماكينة أو حيوان جر.. هناك أعمال أشبه ما تكون بالعقاب والعذاب، هناك أعمال مرهقة ومملة.. هناك أعمال لا تحقق للعامل سوى متعة النوم العميق من الجهد والسأم، وربما متعة الحصول على الأجر الذي هو غالباً ما يكفي بالكاد لسد الرمق. فلولا الحاجة الماسة لما رضي العمال بشروط العمل القاسية.. **العمل هو أيضاً وسيلة اضطهاد واستعباد واسترقاق.** لقد عاقبت الآلهة البشر، فجعلت رزقهم مشروط بالجهد والشقاء، وحياتهم مرتبطة بالألم والحسرة. أما الإنسان المتحرر من ضغط الحاجة فسوف يعمل ليلبي رغبة ذاتية، في تقديم الخير وجلب السعادة وتجميل البيئة وتحسين شروط حياة الآخرين.. إنه يجب أولاً أن يتمتع بالحرية والكفاية، ثم أن يكون له حق التصميم والاختيار والمشاركة والتوقيع، هذا هو العمل الممتع المرغوب الذي يتفوق على متعة التملك ومتعة الاستهلاك، وهو ما يجعلنا نميز بين

عملين: عمل ملزمين عليه من أجل تأمين الدخل، وهواية نعمل فيها نحقق فيها ذواتنا... **هناك أشياء نندفع لفعلها بعزم و إرادة ومتعة دون مقابل ولا أجر تحمل في ذاتها أجرها وثناءها.. فيها يحقق الإنسان ذاته ويعبر فيها عن وجوده وإنسانيته.**

ومن متعة العمل ننتقل بسهولة لمتعة النجاح، فتحقيق النتائج المرجوة المصممة، هو الذي يولد الشعور بالسعادة، إنها المطابقة بين الفكرة والنتيجة، إنها البرهان على الوجود وعلى القدرة.. أنا أعمل إذن أنا موجود.. وهذا عملي يدل على من أنا أكون وما أنا أشكل وكم أنا أساوي.. إن النجاح يشد معه تحقيق رغبات أخرى في الاحترام والتقدير والشهرة والتملك.. لكن النجاح يتطلب العمل المخلص وبذل الجهد.. أما النجاح الذي يأتي بالمصادفة أو بالغش فهو يفقد كل متعه سوى التملك الذي يصبح نوع من السرقة.. فالنجاح ضروري لتحقيق متعة العمل، والنجاح يتطلب الإرادة والرغبة والهواية و بذل الجهد والاستعداد النفسي والإبداع.. وملاءمة الظروف.. ومتعة النجاح مرتبطة أيضاً بتقدير الآخرين لها، لذلك كان تشجيع العمل وتشجيع النجاح والناجحين ضرورة من ضرورات تفعيل القدرة والقوة العاملة وتأمين الشروط المساعدة.

حب البقاء:

لحب البقاء وجهين وجه إيجابي كأن نسعى للحصول على الهواء والماء والطعام والجنس وهي كلها حاجات قوية ومؤثرة تجعل من حب البقاء غريزة أولية، ووجه سلبي يقوم على الهروب من المخاطر و رفض الضعف والموت وإنكاره والتحايل عليه.. الموت كحقيقة مرة لا تتلاءم مع وعي الإنسان، الذي يتصف بإمكانية البقاء والاستمرار، فوعي الإنسان يتجاوز المحدود بالمكان والزمان وينطلق خارجهما وخارج الجسد أيضاً، (وعي مفتوح على المطلق واللامحدود والخالد، ومحمول على جسد ضعيف هرء يسير بسرعة نحو الفناء) ومسألة الموت هي من المسائل التي فضت مضجع الوعي الإنساني منذ بداياته.

ورغبة البقاء والخلود تتجلى في الكثير من المظاهر وتفسر الكثير من أنماط السلوك، فالأمومه مثلاً تعتبر حاجة عند الأم، وغريزة تتحرك عند المرأة المولد التي تنجذب بشكل غريزي نحو مولودها، وتقدم له كل ما يريد.. وهي موجودة في الحيوان والإنسان وهي الرابط الغريزي الذي يدفع بالآخر لتلبية طلب الرضيع فهي ضرورية لاستمرار النوع.. لكنها أيضاً رغبة، فالكثير من النساء تقمن بدور الأم بكل أمانة وإخلاص واندفاع لا يختلف عن الأم الأصلية.. وتستمر رغبة الأمومة عند البشر بعيداً عن أولادهم، وربما تكونت هذه الرغبة بتأثير الثقافة وربما بتأثير ظروف الحياة ذاتها.. حتى أنها موجودة بنسب كبيرة ومتفاوتة في الرجال أيضاً.. فالدافع الذي يحرك الرجل تجاه طفله وتجاه الأطفال الآخرين هو دافع مشابه..وإن غيرته الثقافة.. الرغبة في استمرار النوع والحياة، فإذا كنا عاجزين عن الاستمرار كأفراد فنحن نستطيع الحفاظ على الوجود الإنساني من خلال الأطفال.. الذين يصبحون بدلائنا الذين

نرى بهم أنفسنا.. الثقافة البطريركية تجعل الولد مشروعاً بهدف لإنشاء نسخة عن والده.. الولد استمرار الأب والأب استمرار الجد، الأسرة تستمر بينما تتغير الأجساد.. الطفل موظف مملوك في مشروع الأب، والأب أيضاً موظف ومملوك لرعاية الابن، ففوق رغبة الأمومة هناك رغبة التملك والاستمرار، التي ترعاها بشكل خاص الثقافة البطريركية التي ما تزال سائدة عندنا. لا يوجد رابط عاطفي بين مصدر النطفة والجنين أو المولود.. كل ما هنالك رغبات فرضتها الثقافة وربما شعور بالتشابه، هناك أيضاً العطف الذي يشعر به الكبير القوي على الصغير الجاهل، القادر على المحتاج..

إن الحفاظ على قوة التمسك بالحياة، يتطلب الحفاظ على الرغبات وليس على تحقيقها.. هناك حاجة دائمة ومستمرة عند الجميع لتحفيز الرغبات وإشعال نارها للحفاظ على نوع من الحركة والرغبة في الحياة والاستمرار.. إن الشلل والاستكانة والفراغ يولدان اليأس والملل والحزن والكآبة.. والإنسان الذي يعيش عمره أسير استلاب رغباته، لا يستطيع الاستقرار والتوازن بدونها.

والرغبة في البقاء تتظاهر ثقافياً بالكثير من الأفكار والقناعات والممارسات.. وهي تقف وراء عقيدة التقمص أو البعث بعد الموت، الإنسان لا يتقبل فكرة الموت وينكرها، ويهرب منها نحو أفكار تعطيه الأمل في الاستمرار. وهذه الأفكار والقناعات على اختلافها تستمد قوتها وشعبيتها من رغبة البشر في البقاء. إن أكبر مصادر القلق الإنساني يأتي من تفكيره في نهايته، وصراعه الخاسر مع الزمن. وهو ما تحاول أن تحتال عليه وتلطفه كل الفلسفات الإنسانية الميتافيزيقية.

كما قد تتظاهر الرغبة في البقاء في محاولة التعويض عن الفناء بالمشاركة بأي شيء خالد.. وأهم مثال هو المساهمة في تراث

الإنسانية وفي بناء هرمها المعرفي المتراكم والمتنامي والمستمر والمتناقل عبر الأجيال.. إنها رغبة الخروج من العالم الصامت نحو العلن، رغبة الإعلان والإخبار والقول.. رغبة الشمول والمشاركة والامتداد..رغبة التلاقح والاتصال بالآخرين رغبة النشر والتوزيع.. إن انطلاق أفكارنا ومشاعرنا من عالمنا الخاص نحو الخارج يحتاج لوسيلة اتصال.. وعندما نعبر عن مشاعر بسيطة يكفينا الصراخ لكن الكثير من الأحاسيس المعقدة والأفكار الغنية التي حصلناها بالتجربة لا تجد دوماً اللغة التي تخرج بها من عالمها الصامت وهي لذلك وبسبب صمتها تشكل ضغطاً ورغبة في الخروج، واكتشاف الشكل التعبيري الذي يمكنها من الخروج قولاً أو فناً هو الإلهام الذي ينقلها من عالمها الصامت الفردي المهدد بالفناء إلى عالم العلن الجماعي المشرح للبقاء..

فالمنطوق هو شكل لمفكر فيه وهذا قد يكون محصلاً بطريقة إشرافية وليس لغوية.. وهذا لا يخلو من المنطق، لكن المنطق يخص الكلام المنطوق ويخص التفكير اللغوي.. أما المعارف اللالغوية المحصلة بالتجربة فهي تملك سلطة الحكم لكن لها منطقها الخاص، بقدر مطابقتها لمضامين المعرفة الداخلية والخريطة الداخلية التي يكونها كل إنسان ويتمكن بواسطتها من الحكم والاهتداء في المكان والزمان والظرف..لذلك فالمعرفة لا تشترط المقدرة على التفسير والإقناع، وقد يكون حكم المنطوق خاطئاً لقصور اللغة، في مقابل حكم الإحساس الأصدق والأصح، وهذا الحكم تطلقه الجماهير التي تستطيع أن تتخذ قراراتها بسرعة وصواب، دون أن تقول لماذا أو تشرح كيف.. فالتعبير يحتاج لقدرة لغوية على صياغة المفكر، وهذه مهارات خاصة بالكتاب الذين يجيدون التعبير عن أو ترجمة عقلهم الداخلي وخريطتهم الداخلية إلى منطوق وخطاب، وهنا نحن بصدد المقارنة بين معرفة إشراقة ومعرفة استنباطية لغوية، عقل أسطوري لا لغوي يحتاج إلى وحي

خاص ينقله من عالم الفناء الشخصي نحو عالم البقاء العام، وعقل علمي لغوي ناطق منذ البداية وفي كل مرحلة من مراحله.

و رفض الموت، هنا هو رفض للصمت، فالخروج من ساحة الصمت إلى ساحة العلن يعني الخروج من الميت إلى الحي القادر على البقاء، هناك رغبة في تقديم ما نملك للغير ورغبة في إسماعهم، ليس فقط لأن الآخرين يمكنهم المساعدة والتعاطف، بل أيضاً لأن هذا الفعل بحد ذاته وبغض النظر عن المصلحة المتوقعة هو رفض للوحدة وللصمت وللفناء.. مجرد خروج الشيء من الداخل نحو الخارج حتى لو كان معلومة عن الذات يعني إمكانية.. هذه الإمكانية مفتوحة على التأثير على الموضوع إنها تمتلك القوة بخروجها، لذلك كان التصريف الكلامي هو أحد أشكال تصريف القلق، ولذلك كانت للكلمة قوة سحرية من حيث هي تنقل تصور ومضمون ورغبة، ولها تأثير قوي على وعي الآخرين، هذه القوة السحرية في الكلمات هي التي تعطي القيمة للتصريف الكلامي.. إن كان في الكلام العادي الموجه لوعي الآخرين، أو في الصرخات الأسطورية الموجهة لقوى مؤنسنة في الطبيعة نتصور أنها تسمع وتشاهد ويمكنها أن تستجيب وتلبي.

فإشعال وعي الآخرين بهمومنا نوع مفيد من التصريف نقوم به مع الآخرين بقسمة مغفلة.. نعطيهم جزءاً من همومنا ونأخذ جزءاً من طمأنينتهم، المشترك أقل قسوة من الفردي، والإنسان بوجود الجماعة يمزج مشاعره معها ويدمجها وحصته من هذا المزيج تختلف عن حصتها قبله.. فالجموع لها دراسات تختلف عن الفرادى.. في الجمهرة تعلو العاطفة ويضعف العقل النقدي ويزداد السحر، وتشارك البشر يساعد على تحريض غريزة القطيع المدفونة فيهم.

الرغبة في المال أو التملك:

تبدأ الرغبة في التملك بالحب.. فكل من يحب يرغب في امتلاك محبوبه.. الطفل يفضل أن تبقى أمه بجانبه أو يبقى مضموماً إلى حضنها.. والجائع يفضل أن يختزن نوع الطعام اللذيذ، والعشيق لا يطيق أن تبتعد معشوقته عنه، ومحب السلطة يتمسك في الكرسي بكل ما أوتي من قوة.. هنا خوف الحاجة وخوف النقص هو الذي ينمي الرغبة في التملك، لذلك كانت هذه الرغبة تشتد تحت تأثير ذكريات الحرمان (حيث أن التملك يعني التحكم التام والسيطرة الحرة)

من الطبيعي أن يمتلك الإنسان أشياءه الخاصة.. ومن المفرح أن تتوفر لديه الموضوعات التي يحب ويرغب ويحتاج.. هذا هدف إنساني نبيل وضروري بل هو حق.. فالتملك العادي الاستعمالي ليس جريمة ترتكب بحق الأخلاق والإنسانية. والرغبة في التملك طبيعية ومنطقية ومفسرة وليست انحرافاً وتشوهاً، بل هي حاجة وضرورة ليس فقط لتوليد الرضا والفرح، بل ضرورة لتفعيل العمل الإنساني وإعطاءه دوافعه ومعناه.

المشكلة ليست في التملك العادي الاستعمالي.. المشكلة تنشأ عندما تتحول الملكية إلى ملكية احتكارية تتجاوز القدرة على الاستعمال.. إلى الرغبة في التحكم بالآخرين أو ابتزازهم عن طريقها.. عندها تتحول الملكية من حق إلى وسيلة عدوانية.

إن التنافس على الملكية الذي يجب أن ينظمه العمل وتكافؤ الفرص.. يتشوه في غالب الأحيان ليعطي تفوقاً مطلقاً للبعض وهم قلة على الكثرة.. ويجعلهم يتحكمون ويعبثون ويبذرون بما يملكوا من أشياء

يحتاجها الآخرون بشدة.. **إن مسألة العدالة الاجتماعي أو شرعية الملكية، لهي من المسائل السياسية الكبرى والتاريخية التي كانت وما تزال تشكل جوهر الصراع السياسي..** إن مجموعات من البشر تدافع عن مصالحها وامتيازاتها وتحاول أن تضفي الشرعية عليها، في حين أن مجموعات أخرى تحاول العكس.... هناك فلسفات وأيديولوجيات ونظم متناقضة.. لكن وللأسف يستمر الصراع وسيلة وحيدة لحسم الخلاف.. وللأسف ما تزال سعادة البعض تقوم على حساب بؤس الآخرين.. وما تزال فلسفة الملكية معرض شد وجذب، ولم تصل الأخلاق الإنسانية إلى مستوى القدرة على حسمها في أرض الواقع حتى الآن.

المال هو وسيلة التملك، فالحصول عليه يعني إمكانية التملك.. والرغبة في التملك تتحول بسهولة لتصبح رغبة في الحصول على المال، في مجتمع تحول فيه كل شيء إلى سلعة تباع في السوق.. إن الإنتاج البضاعي (الموجه للسوق) هو أساس الاقتصاد الرأسمالي، والمال هو المحرك لكل عمليات الإنتاج والاستهلاك.. به نشتري وسائل الإنتاج والمواد الأولية وقوة العمل وبه نبيع منتوجاتنا.. وبه يشتري المستهلك حاجاته.. المال كل شيء في تفاصيل الحياة اليومية، المال عصب الاقتصاد ودمه.. به يبدأ وبه يعمل وبه ينتهي.. من الطبيعي أن يسعى البشر للحصول على المال الذي به يفعلون كل شيء.. المال ضرورة وإدراك هذه الضرورة ينمي الرغبة في المال.. حب المال.. جزء من حب الحياة، والحصول على المال وسيلتها.. حب المال هو سمة العصر الرأسمالي.الرغبة في المال تحرضها الثقافة الرأسمالية وتنميها بشدة.. الثقافة الرأسمالية تصور الحياة وكأنها مصممة فقط للأثرياء والمنعمين، وبدون الثراء لا معنى ولا قيمة لشيء.

طبعاً نقص المال لا يسبب ضرراً نفسياً، بل كوارث حقيقية في مجتمع يعبد المال ويعيش به، إنه يعني فقدان الحرية والكرامة والأمن والغذاء والماء والكهرباء والتداوي وكل شيء.. المال حاجة أقوى من كل حاجة في العصر الرأسمالي الحديث، ونقصه مصيبة لا يشعر بها إلا من يعيشها، في هذا العالم المتوحش الفرداني الغير مسؤول.. إن إدراك تلك الحقيقة أو تجربتها لن يولد فقط حب المال، بل تعلق جنوني به، وتضحية بكل شيء في سبيله.. الحصول على المال يصبح الحاجة والرغبة الأشد في مجتمع اليوم.

والرغبة في المال ليس لها حدود، وقد تستمر أبعد بكثير من كونها وسيلة... بل تتحول إلى غاية تحتل مكان ما هي مسخرة أصلاً لأجله... والحصول على المال قد يسبب الكثير من المتاعب والمصاعب والمشاكل الجديدة، وقد يسبب العناء بدل الراحة..و بسبب حب المال والرغبة في المال قد نبيع ما نحب ونريد، ونمتنع عن استهلاك ما نشتهي.. نكتفي بفرح القدرة على الشراء والقدرة على الاستهلاك ونتوقف عنده، ونستعيض به عن الاستعمال ذاته.. **فالشعور بالقدرة يكفي لإسكات الكثير من الرغبات التي تنبع كما أسلفنا من ذكريات الحرمان..** وهذا موجود في المال والجنس والسلطة (ليس من الضروري أن نقتل، بل تكفينا القدرة على القتل، وليس من الضروري أن نمارس الجنس مع امرأة معينة، بل تكفينا إمكانية الممارسة، وليس من الضروري إخضاع الآخرين، بل تكفينا القدرة على فعل ذلك متى شئنا..).

أحياناً قد نتخلى من أجل المال عن القيم والمثل، أو عن الحب والوفاء والجمال والفن، وقد تضعنا وسائل الحصول على المال في مواجهة مباشرة مع ذلك.. وتلك هي مشكلة الرأسمالية.. فهي في

تنميتها لحب المال وعبادة المال لا تراعي بقية جوانب الحياة.. إن الإنسان الرأسمالي ما يزال مسحوراً بالسلعة، ولم ينتبه بعد إلى قيمة المعنى.. إن الصناعة الرأسمالية المتطورة قد أنتجت كل شيء ما عدا الأخلاق والمعايير الملزمة.. ينطلق سباق مجنون ومسعور نحو الثروة، وتنشأ الحروب والصراعات الدموية، ويسحق الأطفال ويموتون جوعاً وتدمر البيئة.. نتوتر ونقلق ونتعب ونرهق ونهمل كل شيء في مقابل الحصول على المال.. نعيش ونموت من أجل زيادة رقم مودوع في مصرف، دون أن ننتبه لأنفسنا أو لكل ما في الحياة من قيمة ومعنى وخصوبة وجمال.. الكل يريد أن يأخذ أكثر وأكثر، ولا أحد يستطيع الخروج من هذا السباق المحموم، وأن يقف ساخراً في وجه هذا التيار الجارف.. يقولون الرأسمالية تحرك البشر والاقتصاد.. وينسون أنها تفقر الحياة من كثير من معانيها.. وينسون أنها نظام متوحش بشدة يولد التوتر والتعاسة على نطاق واسع..

الجميع خاسرون في معركة التسابق الرأسمالي.. الجميع سيخسرون الراحة والحب والقناعة والتعاطف والتراحم والتأمل والتشارك.. يعيشون أفراداً مع أقران يكشرون عن أنيابهم ويستعملون كل الأسلحة في تنافس غير شريف على الثروة، لا تحكمه أية مبادئ أو قيم أو محرمات.

لكن هل حل النظام الاشتراكي المشكلة.. ربما حل جانباً منها لكنه بكل تأكيد أنشأ مشاكل جديدة كانت كفيلة بانهياره.. لقد كان يدعي نظرياً أنه سيحل كل تلك المشاكل والتناقضات، وسيجعل حياة البشر سعيدة إلى حد أبعد من التصور.. لكن التطبيق والنتائج جاءت بما لا يطابق الوعود، فبدل العبودية للسوق كما في النظام الرأسمالي صارت العبودية للدولة ثم للشخص، وبدل تشجيع الإنتاج وتحسينه نمت العطالة والبطالة، وبدل التخطيط للاقتصاد جرى التخطيط للإفقار

والاختلاس والتسلط..لقد كانت تجربة البشرية مع الحركات الاشتراكية تجربة كثيرة السوداوية بسبب طغيان الطابع الفاشي على أدواتها.. وهي إن بقيت نظرياً حلماً للبشرية، فإن تحويلها من يوتيبيا إلى واقع ما يزال هو الآخر بحاجة إلى تفحص وتمعن ونقد.. فليس صحيحاً بشكل مطلق أن إلغاء الملكية الخاصة سوف يلغي الشرور، كما أنه من البديهي أن نقص العدالة وتكافؤ الفرص مضر بشكل كبير، إن السعادة كما سنبرهن بالرغم من أنها شعور شخصي، لكنها في الحقيقة مسألة اقتصادية واجتماعية وسياسية.. وثقافية.. ويمكن للأفراد البحث الفردي المعزول عن وسائل تحسين مستوى سعادتهم، لكنهم لن يحققوا نتائج ملموسة بدون انتقال مسعاهم إلى الصعيد الجماعي.

رغبة الظهور:

الفرد يحتاج لاهتمام الآخرين.. فلولا اهتمام المربي به منذ طفولته الأولى لأهمل ومات، فالحصول على الاهتمام يعني الحصول على إمكانية الحياة.. أكثر ما يكره الطفل هو إهمال مربيه أو والدته وتجاهلهم له.. تبقى ذكريات ذلك على شكل رغبة في المحافظة على هذا الاهتمام أو توليده وتحريضه.. إنه الجزء الذي أسميناه الأنا المحبوب والمرغوب والذي بدونه تفقد الأنا كل شيء مقدم من الآخر (يسميه فرويد ملكية القضيب)، إن جذب اهتمام الآخرين ولفت نظرهم هو الدليل على الأهمية وهي المقدمة لتوجيه الطلب أو لتسخير الآخر لخدمة الأنا.. إنها رفض للإهمال والإنكار الذي يهدد الأنا، أو تهدد بها الأنا من قبل الآخرين.. إنها مكافحة هذا الإنكار (أو خوف الخصاء عند فرويد)..

وكل وسيلة للظهور في ساحة العلن، أو لجذب اهتمام وأحاديث الآخرين ونظراتهم، تصبح موضوع رغبة قوية عند البعض ورغبة موجودة عند الجميع.. الأنا ترفض التحقير والتجاهل.. الأنا تعشق نفسها وتطلب من الآخرين الاهتمام بها، إنها تدرك أهمية الآخر ولا تريد العدوان عليه، بل تريد اجتذاب محبته وخيراته.. هي لا تحارب الآخر بل تستخدمه وتوحي له بأهميتها.. ليست رغبة عدوانية بل أنانية قليلاً.. تتصف النفس بالحساسية المفرطة تجاه آراء الغير وتجاه اهتماماته.. تهتم بالشكل والمظهر وتهتم بالأضواء، تدخل في صلب المسائل الحامية المحتدمة. توظف الكثير من الجهود والطاقات في سبيل الإعلان والدعاية.. تحور وتحول الذات بما يتناسب مع ما يلفت النظر ويشد الانتباه.. يجب التمييز بوضوح بين الرغبة في العنف والتسلط والإخضاع التي ترمي إلى قهر وقمع وإفناء الآخر السلبي، وبين الرغبة في إ

وإبراز وتدعيم الأنا الإيجابي التي يحبها الآخر ويشجعها.. نحن هنا نتحدث عن رغبة إيجابية مفيدة للجماعة تجعل الفرد ميال لإبراز الجانب الإيجابي منه وميال لتدعيمه وعرضه على الآخرين.. إنها رغبة في جذب اهتمام الآخر وطلب محبته والتعاون معه..

الاهتمام بالمظهر هو أحد أشكال الرغبة في الظهور، فالمظهر هو الذي يراه الآخرون من الأنا وعليه سيكون حكمهم وتعاملهم.. وسط جماعة محددة أو ذات نظام معين.. أرغب بالظهور ضمن كركتر ما لألعب دوراً ما.. متوافقاً أو مخالفاً فالمظهر يحمل رسالة، فهو عبارة عن إعلان.. فالطاقية والقمباز القصير والشوارب المقصوصة واللحية المرسلة هي رسالة موجهة للآخرين تقول بمضمون ما وانتماء ما وموقف ما.. وكذلك الحال بلباس الزي الغربي فهو أيضاً رسالة وإعلان انتماء وتعبير عن رغبة داخلية. المظهر قد يتناقض مع المضمون وقد يعبر عنه..و الانسجام بين المظهر والداخل شيء رائع.

الاهتمام المفرط في المظهر ينشأ عن ضمور قيمة المضمون.. المرأة مثلاً تهتم بمظهرها لأن مظهرها جزء كبير من قيمتها في ثقافة ما، في العلاقات الاستعراضية والتلاقي الرسمي الشكلاني في حفلات المراسم حيث المظاهر هي الشيء الوحيد الهام، حيث لا أحد يبحث عن حقيقة وجوهر الآخر.. الجميع يمثل دور شكلي في مهرجان شكلي ومسرح شكلي.

الحياة عبارة عن مسرح استعراضي كبير، يلعب فيها كل فرد دوراً استعراضياً جماعياً أو دوراً فردياً في مواجهة الفرد الآخر، و عندما تريد الآخرين فعلينا اجتذاب اهتمامهم.. وقوة المعروض تنشأ من قدرته على تلبية الرغبة المفترضة عند المعروض أمامه، الاستعراض هو تمازج وتوافق واسمتزاج رغبة الآخرين ورغبة الأنا. ليست كل الأشياء قابلة

للعرض فقط الأشياء المرغوبة والمطلوبة.. وقوة السلعة في قوة الحاجة إليها.

أما الرغبة في البروز والتفوق والعظمة أو في تقمص العظمة أو التماهي معها والانجرار وراءها، فهي وسيلة الهروب والخروج السحري من الاعتراف بالعجز والضعف، **العظمة وسيلة هروب من ضعف.. لأنه لا توجد عظمة حقيقية، فكل إنسان ضعيف، و كل عظمة خرقاء واعتبارية وتخيلية، ومتعة العظمة ما هي إلا متعة سحرية ناتجة عن وهم الخلاص ووهم الهروب من مواجهة الواقع.. الواقع الذي يقهر كل عظمة وكل تكبر.** فالتواضع هو الحال الطبيعي لكل إنسان مهما وصل من درجات، والتكبر هو وسيلة الأخرق والمجنون الذي يدفن رأسه بالرمال ولا ينظر أبعد من أنفه، حتى من نسميهم بالعظماء لم يكونوا سعداء ولم يعيشوا السعادة، نحن نستعملهم ونجعلهم عظماء وسعداء، لكنهم في حياتهم ربما كانوا أشقياء وتعيسين، أولم يكونوا أسعد منا في حال من الأحوال، نحن نبني صرح عظمتهم ونوظفه.. فحلم العظمة هو حلم مستحيل وما هو إلا سراب.

التسلط و الإخضاع والعنف:

لا أقصد هنا ممارسات العنف والتسلط التي تمارسها سلطة غير مشخصنة.. أي المؤسسات التي يقوم فيها الأفراد بأدوارهم كموظفين محكومين بنظم وقواعد وضوابط. بل أقصد السلطة الشخصية التي يتحكم بها الشخص بغيره (إن كان في الجماعة كلها أو في جزء منها..) ولا أقصد حب الأضواء وحب الشهرة والظهور.. أقصد هنا بالسلطة هي القدرة على التحكم بالغير.. معنوياً ومادياً... أما معنوياً فسوف ندرس ذلك في بند مستقل مع الرغبة في الجماعة وحب التوحد معها.

لكن هنا سنتعرض فقط للتحكم المادي بالغير.. وهي رغبة تنشأ مباشرة عن الكره.. فذكريات الآخر المعادي وخوفه المستمر، تنمي عند البشر الرغبة في إضعاف الآخر والسيطرة عليه، وهي شيء موجود عند الجميع أطلقت له الإرادة العنان أم لجمته الأخلاق والقيم.. قتال الآخر وإفناءه أو السيطرة عليه وإخضاعه.. رغبات موجودة دفينة في اللاشعور أو ظاهرة في الوعي.. وهي ستندفع نحو التحقق الرمزي أو الفعلي.. إن أحلام الإنسان بالقوة ورغبته فيها تعبر عن ذلك، وانتشار رياضات العنف والصراع أيضاً تفعل، وولع أفلام العنف والرعب.. فالإنسان كما هو أخو الإنسان هو ذئب يهدده بالافتراس.. ولا يمكن الارتكان دوماً لدافع الحب، بل يجب الحذر الدائم من تفجر دافع الكرة.. إن الرغبة في السيطرة هي عنوان عريض يترجم ويلخص الكره والرغبة في القتل والعنف والإفناء والهزيمة التي نريد أن نلحقها بالآخر أو بالآخرين..أيضاً ولع السلطة يظهر بشكل كبير وجلي عند المهملين من أبناء المجتمع.. يرون في السلطة وسيلة لتعويض الضعف والنقص.. والتماهي مع السلطة هو التماهي مع القوة.. فليس كل الرغبات في السلطة رغبات

بالقتل والعنف، بل هي رغبات في التخلص من إرهاب العنف والتهديد الممارس من قبل السلطات.. وهي دوافع عدائية على كل حال وإن كانت أضعف من دوافع الخير بشكل عام، لكنها موجودة عند البعض بنسب أكثر وأكبر.. وقد تطبع سلوكهم عدوانية صريحة، لكن هذه العدوانية ليست تكوينية بقدر ما هي تحصيلية ناتجة عن الظروف وعن طريقة الإرتكاس مع هذه الظروف.. يجب أن يفهم حب السلطة والتسلط كترجيع للعنف وتعبير عنه.. وعدم خضوع البعض لقوننة السلطة **وتمسكهم** بالسلطة الشخصية المطلقة، يعبر عن فشلهم في ضبط عدوانيتهم الدفينة في النفس وعن استسلامهم لها.. وهذا النمط من الشخصيات سيكون ميالاً للعنف.. فالتسلط والعنف وجهين لعملة واحدة لهما دور واحد هو ترجيع القهر والكبت والهزيمة في مواجهة الآخر **(فالتسلط هو الوجه الآخر للاضطهاد، والمتسلطون هم أناس مضطهدون فروا من اضطهاد الآخرين لهم نحو اضطهادهم للآخرين، وهم ليسوا أقوياء ليحاربوا الاضطهاد، بل جبناء بحثوا عن أيسر طرق الهروب وأكثرها اختصاراً.. بالتزلف للاستبداد ثم التورط في ممارسته والإمعان به خوفاً من انقلابه وارتداده عليهم..إن تمسكهم المرضي بعناصر القهر والعنف ليس نابع عن قوة ولا قسوة بل عن جبن وخوف وجذع وضعف.. وعندما يبطشون فهم يضربون ضربة الخائف ولا يتسامحون تسامح القوي المقتدر..)**..

إن ممارسة التذلل وطقوس الخضوع للقوي، تلبي عنده الرغبة في الإخضاع وربما تثني عزمه عن متابعة البطش.. وهو سلوك تمارسه كل الحيوانات في نزاعاتها مع أفراد نوعها، إن القوي المتغطرس يرتاح ويعجب لطقوس التذلل.. أما عبادة القوي والتقرب إليه بالتذلل والخنوع فهي وسيلة من لا يملكون شيئاً في مواجهته. فقبول الاستبدا

والتزلف والموالاة له والتدليس والمسايرة، مهما قيل عنه فهو قبول..أما رفضه فهو رفض ليس فقط لشخص المتغطرسين، بل للغطرسة ذاتها.. من يقبله له يقبله عليه، ومن يقبله عليه فهو يأمل ويسعى أن يصبح له.. لا أقول أن الجميع يستطيعون محاربة الاستبداد والوقوف في وجه البطش.. لكن الرفض شيء والقبول والتورط والمشاركة شيء آخر.. أن تخضع ساكتاً وصامتاً لقوة لا قبل لك بها شيء مشروع، فليسوا كثرة من يملكون القوة أو الرغبة في خوض معارك خاسرة.. لكن مع ذلك هناك من البشر من يجبرون على الخنوع لكنهم يتقبلونه داخلياً ويتمثلونه.. يبدؤون مقموعين خانعين، ثم يطورون أساليب خنوعهم وخضوعهم ويبالغون فيها.. يرتفعوا فوق زملائهم الآخرين ليمارسوا التعسف والاضطهاد على من تحتهم مهما انخفضت سويتهم الاجتماعية.. كل فرد يمكن أن يكون متسلطاً في مجتمعات القهر، بحيث يبحث عن طريقة للاتصال بموضوعات القهر والتسبب في زيادة قهر الآخرين.. منهم من يستثير عنف وبطش المتسلط، للتلذذ بذل وعذاب الآخرين الرافضين بصمت أو بصوت مرتفع.. فقط يتلذذ مجاناً رغم أنه يتعذب مثل غيره لكنه يختلف عنهم بقبوله وهم برفضهم.. إن وعيه للتعسف والاضطهاد يختلف عن وعيهم له، فهو يحوله بطريقة سحرية إلى نوع من الضرورة ومن القوة الجبرية.. إنه يلطف شعوره بواسطة قبوله، فتقل حساسيته للتعسف والظلم، وبالتالي تسهل عملية تحوله إلى ظالم وقاهر ومتعسف.. يبررها بذات الضرورة التي برر بها لمن فعلوا به فعلتهم. كل ماسوشي هو سادي فقد الوسيلة، أو هو مشروع سادي مشوه.. وكل متقبل للعنف هو ميال له ومستخدم له.

إن الخنوع والخضوع للعنف وتقبله وممارسة التزلف والمداهنة والانسحاق، هو مقدمة لانفجار سيل جارف من العنف الأعمى والبطش

العشوائي، وهو ما نراه جلياً في تفجر المجتمعات التي تركن فيها حركة المجتمع وتستقر فيها سلطة الاستبداد وتتعفن. إنه نوع من الزراعة يكثر فيها العنف نفسه ويعيد تجديد ذاته على نطاق موسع.. إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.. العاصفة التي لا تقاوم التعسف والاستبداد بل تنشره وتوسعه ونمارسه.. المستبد الكبير ينتج ويفرخ مستبدين صغاراً هم أنفسهم يتكاثرون ويفرخون.. وكما قيل فالناس على دين ملوكهم.. وسرعان ما يتعمم العنف ويتعمم الاستبداد ويصبح الجميع تحت رحمة العنف، ويصبح هو أداتهم ووسيلتهم، فينهار السلم الاجتماعي، وينهار نظام الجماعة الذي لا يقوم في أي حال ولا يستقر بدون الرضى والقبول الحر من قبل الأغلبية على الأقل، وتسامح الأقلية المشروط بالحفاظ على حقوقها، ومنها حقها في العمل على التحول لأغلبية. وهذا ليش شرط المجتمعات الحديثة الديمقراطية فقط، بل هو شرط وقانون كل اجتماع.. فحتى سلطة الملك الإله في الماضي كان هناك عليها وحولها نمط من الإجماع كطريقة لتحقيق نمط أعلى من التشكيلات التي تقوم على صناعة القوة وعبادتها.. فالخضوع للقوة في حينها كان ضرورة.. وصناعتها حاجة اجتماعية وحضارية.. في زمانها.. الذي يتصف بمستوى معين من تطور وسائل الحياة. وفي غياب إمكانية وجود واستقرار تلك النماذج الأرقى والأقل ألماً.

إن المقاومة الإيجابية للعسف والاضطهاد، تعكس حيوية وفعالية المجتمع ووصوله لمستوى حضاري أرقى.. لكن سهولة انتشار وشيوع، وسهولة استقرار الاستبداد والتسلط، له دلالة معاكسة تظهر في إعادة تجديد هذا التسلط وإعادة صناعته في كل مرة ينهار فيها بفعل المقاومة السلبية له.. فالمقاومة السلبية قد تبقي التربة صالحة لولادة نوع آخر من القهر.. أما المقاومة الإيجابية فهي إعلان لقرب مرحلة الخلاص.

وبقدر ما بسود التعسف والعنف..وبقدر ما تكون السلطة مشخصنة (شخصة) بقدر ما يكون المجتمع فاشلاً كمجتمع وتجمع بشري، أي بقدر فشل نظامه الثقافي والتربوي على توليد أسس الاجتماع الصحيحة..

طبعاً ليست كل السلطات التي يرغب فيها الشخص المتسلط هي سلطات سياسية على أهميتها.. هناك أيضاً سلطات أدنى وأقل.. منها سلطة زعيم القبيلة ورب الأسرة وأستاذ المدرسة وقائد الوحدة العسكرية وزعيم الحزب وإمام المسجد.. وكل سلطة اجتماعية هي مسؤولية مقوننة، وكل انحراف عن ذلك سيعبر عن جوهر شخصي عدواني.. كل تحول للسلطة من عمل وواجب إلى رغبة وميزة في وعي الجماعة أو في وعي الفرد، هو فتح البوابة نحو تبادل العنف.. وبالعكس إن كل سلطة مشخصنة وغير منضبطة، ستقابل بالكره والعنف المضاد، فالطفل بمانع أهله ولا يصغي لمدرسه، والمصلي لا يتبع تعاليم إمامه، والجندي يخذل قائده.. وهكذا فمتعة التسلط هي متعة سادية.. إن وجدت تصريفها بالحكم أو في ممارسة الجنس.. (في الجنس كما أسلفنا يمكن تصريف الرغبة في العنف والقتل الرمزي والإخضاع الرمزي، كما في الرياضة و الرقص والفن والمسرح والسينما) يجب البحث عن كل وسائل تصريف الانفعال والعنف المخزون الني لا تضر في الجماعة.. العنف الذي إذا وصل إلى سوية مرتفعة لا نعرف كيف سيتفجر.

هناك رغبة في السلطة تدعي أنها تهدف إلى نفع الآخرين.. فالبعض يرى غيره على ضلال ويريد أن يصلحه عن طريق التسلط عليه.. يدخل معه في صراع لإخضاعه على أساس أنه في النهاية سيقوم بمساعدته.. (وهنا نسأل ما هي الرغبة المراد تلبيتها.. حسب الإدعاء هي رغبة الحير ونفع الآخرين.... ومثل تلك الادعاءات ما هي إلا

ريش كاذب يغطي جسد مختلف التكوين.. فلو كانت هذه الرغبة صافية لتراجعت عند تصادمها مع أول صورة للعنف، لأنها رغبة سلبية ومسالمة إلى أقصى مدى، فمن النادر أن يندفع من يريد النفع لتقديم النصيحة لمن لا يطلبها منه، وهو عندما يبحث عن من يلقنه النصيحة فإنه هنا يمارس تسلطاً عدوانياً إنه نوع من الاستعمار الفكري، يهدف إلى إدخال الأفكار والقيم التي تشبه عملية إدخال القضيب في العدوان الجنسي والاغتصاب.. اقتحام الآخر وتمزيقه وإقحام الذات داخله.

فكل أيديولوجيا مهما كانت وبالرغم من أنها شعارات عامة، فهي في النهاية ستترجم إلى مصالح فردية، وعليها أن تحقق رغبات فردية مختلفة لأفراد ركبوا في قطارها.. (فالأيديولوجيا الاشتراكية مثلاً تعني للعامل زيادة أجره وتحسين شروط عمله.. وهي نعني للشاب المثقف الحصول على المنصب، وللعسكري السلطة.. وهكذا يجري تقاسم الغنائم والحصص ضمن كل أيديولوجيا، حتى لو كانت في منتهى الإدعاء بالتضحية.. وكذلك الحال مع الأيديولوجيات الإسلامية.. فالمناضلين والمجاهدين وبالرغم من إيمانهم بالتعويضات الأخروية المجزية.. فإنهم يتمسكون بحق قيادة الناس للجنة بالسلاسل.. وحتى أولئك الذين يضحون بحياتهم إنهم في الحقيقة يسعون لتلبية رغبات نفسية خاصة بهم كما سنرى فيما بعد.

فمن يريد أن يعطي يستطيع أن يعطي بصمت ومن دون ثمن ومن غير حدود.. وكل من يخرج عطاءه عن دائرة الصمت والخفاء هو في الواقع يريد الأخذ أو على أحسن تقدير المقايضة.

المشكلة ليست في الأيديولوجيا فهي قد تعلن عكس ما تضمر.. المشكلة في الأفراد الذين يرون في أيديولوجيا ما ضالتهم.. يبحثون عن أيديولوجيا تبرر العنف وتسهله، تبرر التعسف والتسلط وتجعله أخلاقياً.

المشكلة إذا في رغبات ونوازع الأفراد التي تكونت في ظروف النشأة وفي التربية ولم يستطع الوعي والنصوح أن يحولها.. إذن المشكلة في الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية السائدة والتي تنتج بشكل عفوي عناصر الحركة الاجتماعية وتوجهها.. (هناك قوى عمياء تفعل فعلها وهناك تدخل ذاتي.. وبمقدار قدرة الذاتي على السيطرة على همجية الموضوعي بمقدار التحضر.. الحضارة تقاس بقدرة الشعوب على توجيه حركتها والتخطيط لحياتها.. قدرة الثقافة على توجيه عملية تشكل الرغبات وعملية تصريفها..) فعندما يرفع المناضلون شعار الطبقة العاملة ويحتلون السلطة باسمها.. ذلك لا يمنعهم من ارتكاب المجازر بحق العمال. مما يفسر الدوافع الحقيقية وراء رفع تلك الشعارات.. إنها الرغبة في التسلط والحاجة لتصريف العنف.. وكذلك الحال عند المتدينين الذين يرفعون الدين شعاراً سياسياً لهم ثم يرتكبون المجازر بحق المدنيين والأطفال.. نحن نسأل هل دوافعهم لخير وهداية الناس هي التي تحركهم لفعل ذلك، أم أنه الترجيع للقهر والعنف والتعسف الممارس عليهم، والتصريف للمكبوتات الاقتصادية والسياسية والجنسية.. وكذلك الحال مع أولئك الذين يدعون الأمر بالمعروف، فهم عندما يستخدمون عصيهم لا يعبرون أبداً عن دوافع خيرة تجاه من يجلدوهم، بل فقط عن رغبات بالعنف تصرف مكبوتاتهم الاجتماعية والجنسية، وأحقادهم على الآخرين الذين سمحت باستباحه ظهورهم بنود الشريعة، واستخدمتها السلطات لتبرير حاجتها لسوق الناس إلى الطاعة بالعصا والسيف..

وما يجب الإشارة إليه هنا ليس فقط عنف السلطات الاستبدادية الممارس على العامة بناء على توجيهات وأوامر.. بل أيضا العنف التطوعي الذي يقوم به عناصر راغبون بالعنف ويسعون لممارسته.. العنف الذي لم تنص عليه اللوائح والتعليمات والأوامر

الإدارية...فالسجانون مثلاً الذين يختارون بعناية من بيئات قاسية واضطهادية، يتطوعون عفوياً للتفنن في أشكال العنف والاضطهاد النفسي والجسدي، لتصريف مكبوتاتهم ورغباتهم على السجناء، الذين استباح نظام الاعتقال العرفي حقوقهم، فقط بمجرد السماح لهم بذلك وبمجرد إسقاط إمكانية الدفاع أو المحاسبة، أي بمجرد استباحة المواطن، يندفع سيل جارف من العنف الذي يمارس في السجون والدوائر والحواجز ونقاط التفتيش ومدارس التدريب.... هنا لا أقصد العنف المجبرين على تنفيذه، بل أقصد العنف التطوعي المجاني الذي ينخرط في ممارسته ليس فقط جلادي السلطة ورموزها بل أيضاً المعارضين لها.. ليس فقط العسكريين بل أيضاً المدنيين.. ليس فقط على الأخصام بل على الجميع الأقرباء والبعيدين.. أقصد عنف الجميع ضد الجميع: الزوج مع زوجته والوالد مع ولده والأستاذ مع طالبه.. والشيخ مع المصلين.. أقصد العنف الذي يطغى على السلوك العام والخاص، العنف الذي صار قانون الحياة ونظامها.. القانون الذي صار بدوره يقوم على الخضوع والإخضاع بالقوة والقهر.

مهما يكن خلافك مع شخص فإنك لا تفكر في قتله بدون دوافع كره وعنف عميقة، وبدون تسهيل في الوسائل، وكذلك الحال في الصراع على السلطة حيث لا يبرر ذلك الصراع الدموي العنيف بين المتخاصمين عليها، إلا أمرين أولهما درجة الكبت والحقد والعنف المضمر عند كل منهما، ثم ميزات ومغريات ملكية السلطة الاستبدادية (فالسلطة المطلقة هي الشيء الوحيد الذي هو أغلى من المال ومن كل شيء).. التي تبرره شكلياً فقط، الأيديولوجيات المتساهلة مع العنف (إن كانت اشتراكية فاشية، أو دينية أصولية).

وباختصار أقول أن مجتمع القهر هو مجتمع السلطات الشخصانية بامتياز، وهو المجتمع الذي تقوم علاقاته على

الخضوع والإخضاع والذي يحكمه العنف المتبادل. وهو سيختلف كثيراً عن مجتمع السلم الأهلي والحياة المدنية المتحضرة، فمسألة الديمقراطية لا تعكس فقط شكل السلطة السياسة، بل ستعبر عن السوية الحضارية لشعب ما بدون شك. فالديمقراطية السياسية وبالرغم من كونها نظام حكم لكنها بنفس الوقت نتاج تحضر ورقي اجتماعي وثقافي واقتصادي..

إن العنف الممارس في الحياة السياسية وفي الحياة العادية وعلى كل الأصعدة، أصبح يشكل مشكلة لا يمكن حلها بسهولة. إنها مشكلة الانسداد السياسي المزمن والقهر والتخلف الاقتصادي والتكلس الثقافي، إنها مشاكل إذا لم نجد طريقة حضارية لحلها، أو مساعدة خارجية على ذلك، فإنها مرشحة لحل نفسها بنفسها وبواسطة نفس الأداة، أقصد العنف الذي لا نعرف كيف سيتفجر ولا نعرف إن كان سيدمر الوجود الاجتماعي برمته أو لا (بعد تنامي الرغبة في الفوضى والتخريب والتدمير والعبث عند الغالبية الصاعدة من الشباب.. لاحظ أن نفس هذه الشريحة من الشباب شكلت ذات يوم المادة التي قامت عليها الانتفاضة في الأرض المحتلة).. إن بوابة الحرب الأهلية مفتوحة وتدخلها أعداد متزايدة من الدول.. بسبب الأزمات البنيوية التي وجدت بها نفسها، بسبب التطور الرأسمالي المشوه بفعل عوامل خارجية، فلا هذا التطور يستطيع إنجاز مهام التحديث العلمي والصناعي وزيادة الإنتاج، ولا يستطيع إتمام تحطيم البنيات الإقطاعية في العلاقات الاجتماعية والسياسية وفي البنية الثقافية والاقتصادية... أو لأن هذا التحديث ينحصر فقط في نمط الاستهلاك دون نمط الإنتاج وطريقة الحياة، لكونه معتمد على تمويل خارجي عن الإنتاج كما في الدول التي تعيش على ثرواتها الباطنية.

إن الرأسمالية بسبب تبنيها لفلسفة اللذة وسياسة تحريض الاستهلاك تخلق عن عمد أزمة تمويل كبرى.. الكبير والصغير يطلب المزيد والمزيد من المال، الفقير جائع والغني جائع أكثر منه. إن سوء التوزيع وسوء الاستخدام يخلق أزمة اقتصادية عميقة تتجلى أكثر في الدول المتخلفة، وتنعكس على شكل تدني خطير في القدرة على إشباع الرغبات المحرضة بشدة والمستثارة إلى أقصى مدى بفعل الثقافة الإعلانية الاستهلاكية الغربية.. إنها تولد أشد درجات الكبت الموضوعي وتخلق أقوى رغبات الحصول على الثروة بأي طريق وأي ثمن.. لا تدمر فقط البنية النفسية والعصبية للفرد، بل أيضاً تهدد البنية الثقافية والأخلاقية للمجتمع وتهدد بالتالي الأمن والسلام العالميين.. إنها كما نرى تستجمع قوى التدمير والتغيير وتحشدها تباعاً وعلى درجات متزايدة..

لكن تعطل ديناميكية التطور والتقدم الاجتماعي ليس مطلقاً ولن يستمر لفترات طويلة، إن تراكم المتغيرات وقوى الضغط والتحولات سوف تعطي نتاجها، وقد أعطت انفتاحات وتغيرات عميقة تتجه نحو شمول العالم مزيحة أمامها كل قوى الإعاقة.

لماذا نتحدث عن التعاسة ونحن نسعى إلى السعادة.. ببساطة: لأن سعادة البعض تشترط كما نرى تعاسة الآخرين بل تتسبب بها.. فالفرد منتمي لجماعة وهو أسير دوافع مستمرة للاندماج والانفصال معها وعنها.. وكما سنرى هناك على العكس سعادة لا تتحقق بدون سعادة الآخرين بل تقوم أساساً على تلك السعادة..

المعارضة والرفض:

بعد أن يفرض الآخر قبوله كاملاً على الطفل، تستمر درجات من الرفض والاحتجاج ومحاولات للتمرد.. لا يحدث قبول تام ورضى تام، بل ربما قبول قسري مرتبط بعداء مضمر يولد ويحرك دوافع الرفض والاحتجاج الممكنة والمتاحة.. هناك إذا دافع طفلي للرفض والتمرد والمعارضة، ينشط ويكبر عندما يشعر الفرد بالقوة.. والقدرة.. لكن ذلك الدافع لا يكون عبثياً فهو يتلافى عند البشر الواعين مع إدراكهم للعيوب والنواقص التي تصيب مجتمعاتهم.. إن الرغبة في تحقيق الذات مرتبطة مع الرغبة في الخير والرغبة في الحقيقة، تتجمع لتشكل المعارضة الجماعية الواعية التي تحرك المجتمع وتعدله.. إن رفض الفرد أو مجموعة ما للنظام الاجتماعي ومحاولتها تعديله وتغييره، ليس رغبة تدميرية وهمجية دوماً.. وهذا لا ينفي حدوث ذلك، فالبعض يعارض بدافع داخلي مبهم للمعارضة.. ويرفض بمنطلق عدائي.. وهذا هو تثبت ونكوص إلى مرحلة طفلية قهرية لم تسمح له بتشكل أنا عليا قادرة على تفهم الحياة الاجتماعية التي تتعارض مع الفطرة الوحشية عند بني البشر..

فالنضوج قد يولد الميل للمحافظة، لكن هذا الميل يزداد مع التقدم في السن وبشكل متناسب مع ضعف الأنا، هذا الضعف الذي يولد رغبة التعويض في الاحتماء بخيمة الآخرين، وهذا يتطلب التعاون معهم ومشاركتهم وقبولهم، وليس رفضهم والسعي نحو تغييرهم، فمن الطبيعي أن دماء الشباب تحمل التجديد، في حين يميل الكبار نحو المحافظة والتقليد. هنا تعمل رغبات مختلفة بقوى مختلفة، فالشباب لا يحتاجون كثيراً خيمة الانضواء الجمعية، بل يريدون تحقيق رغبات أخرى،

في حين أن الكبار الذين فقدوا الكثير من رغباتهم يسرعون لتحقيق رغبة المصالحة والانضمام للجماعة مهما تكن في مواجهة مصير فردي أسود ومقلق. وهذا لا يعني قبولهم النظري بما عليه الجماعة، بل ربما العكس، هم يستمرون في التمسك بخيمة الجماعة دون التمسك بقيمها، وهذا ما يبرر لنا عدم المبالغة في قوة الكتل المحافظة، التي لا تتمسك بالقديم لأنه مقنع لها، بل فقط لأنه شكل ناجز يمكن استعماله لمن لا يملكون الوقت لانتظار الجديد.

من الطبيعي أن تتشكل قوى رفض واقعية للنظم السائدة في المجتمع، وهذا شيء مبرر وضروري..وهذا ليس مرتبطاً بعقد طفلية.. بل بوعي وإدراك وتباين في المصالح والحصص.. فالمجتمعات تحتوي هذا التباين الذي يولد الاختلافات والخلافات، والتي بدورها تحرك التركيبة الداخلية والتطور.. وفكرة الاعتراف بوجود معارضة و قوى رفض فكرة حديثة نسبياً (حيث فيما سبق كانت الفكرة هي الانقياد التام والشمولي والخضوع المطلق والانتماء العضوي..) لكن هذه المعارضة لا تأخذ دائماً شكلاً فردياً.. وخاصاً بل تسعى للتجمع وفق أشكال معارضة جماعية تختزل وتعبر عن مجموعة من المعارضات الفردية.. وطريقة هذا التعبير وهذا الجمع تتم عبر صياغة الهدف والشعار والبرنامج.. فلكل جماعة أيديولوجيا.. تجتمع الجماعة تحتها وتنضوي تحت خيمتها، ومصطلح الأيديولوجيا مصطلح معقد وخصب في آن.. فهي بالتحديد برنامج سلوك جماعي سياسي.. يبدأ من عالم المعارف والأفكار وينتهي بتوجيه السلوك والعمل.. إنه الحلقة الواصلة بين الأحاسيس والسلوك عبر بوابة المعرفة.. فهي غطاء عام ورابط عام، لكنه يتشكل فوق الدوافع الفردية، وعليه في النهاية أن يلبيها.. فكل هدف جماعي يحدث في النهاية تقسيمه لحصص فردية.. من هنا لا يجب النظر لشكل الشعار ولون العلم، بل أولاً لنوعية المصالح والرغبات التي على

هذه الأيديولوجيا تحقيقها، أي يجب البحث أولاً في مصالح ورغبات الفئات التي وجدت نفسها تحت شعار ما، فهذا الشعار قد ينحرف قليلاً أو كثيراً عنها، ففي كل أيديولوجيا درجة من الكذب والاختلاف.. تصغر وتكبر من أيديولوجيا إلى أخرى. في النهاية البشر يتحركون حسب مصالحهم، وقلة فقط تعاكس تلك المصالح لصالح الفكرة.. وهي نوعية متميزة أو معقدة.. تسلك سلوكاً معقداً ملتفاً للوصول إلى مصالحها ورغباتها.. **إن ظروف حياة البشر المادية هي التي تحدد لهم رغباتهم وأيديولوجياتهم أي ثقافتهم، وهي التي تحدد لهم بالتالي شكل نشاطهم السياسي الهادف لتكريس أو تعديل شروط هذه الحياة..** الأفكار والعقائد والنظريات ما هي إلا وسائل تستخدم في هذه الحلقة وتشتق منها.. وهي إن أعطت ثباتاً نسبياً للثقافة، لكنها في النهاية لا تستطيع أن تتناقض مع مصالح البشر، أي مع تطور وتغير شروط الحياة المادية.. فهي التي تحدد الأسس والإمكانيات وتحدد أيضاً مدى صلاحية أو عدم صلاحية الثوابت الثقافية.. التي تجد نفسها مجبرة على تقديم استقالتها كلما تجاوزها الزمن.. إن الحلقة المتصلة بين الاقتصاد والثقافة والسياسة والتي تشكل الديناميكية التي تعيش بها المجتمعات حياتها الداخلية، تتحدد بشروط وإمكانات الحياة المادية المعاشة أي بمستوى تطور قوى الإنتاج.. لا أقصد فقط الإنتاج البضاعي بل أيضا الإنتاج العلمي والطبي والفلسفي والفني والأدبي والعقلي أيضاً.. إن حاجة البشر المستمرة لزيادة هذا الإنتاج كماً ونوعاً هي التي تحرك المجتمعات وتدفعها نحو الارتقاء، أي في النهاية حاجات ومصالح ورغبات الأفراد التي تحركهم وتضغط عليهم باستمرار وتوجه جل سلوكهم. **(أي أنه في النهاية البشر أنفسهم يصنعون التاريخ تحت ضغط حاجاتهم ورغباتهم وبواسطة عقولهم وأيديهم)..**

هناك مرونة كبيرة في تكيف التشكيلات الاجتماعية وقـدرة هائلـة لديـها علـى اسـتيعاب أنمـاط مختلفـة مـن الأنظمـة السياسـية والتفاعل معها والتأثير عليها.. ثم قلبها وتغييرها ففي المحصلة النهائية سوف تعبر التشـكيلات الاجتماعيـة عـن سويتها الحضارية التي وصلت إليـها طـال الزمـن أو قصـر.. لكـن حياة الفرد القصيرة قد لا تستمر لفترة تتناسب مـع اكتمـال دورة الزمن اللازم لتولد ردات الفعل ونضوج أثرها..

أغلب المجتمعات تدعي نظاماً أخلاقيـاً وتدعـي انتماءهـا لمرجعيـة أخلاقية نبيلة.. لكن هذا في كثير من الأحيان لا يعـبر سـوى عـن إعـلان ليس له حظ ولا نصيب من الواقع الممارس والمعاش.. فالذي يفعل فعـلاً ويؤثر على سلوك الأفراد هو الطريقة التـي يسـمح لـهم بـها مجتمعـهم بتحقيق مصالحهم أو تلبيـة حاجاتـهم ورغباتـهم.. أقصـد نظـام المجتمـع ذاتـه وطريقـة ترتيـب أولباتــه و آليـة وشـروط الارتقـاء علـى سـلالمه الإقتصادية والسياسـية والثقافية.. أي قانون النمو والحصول علـى الـثروة والسلطة أو طريقـة وأسـلوب ونمـط السـلوك المطلـوب لتلبيـة الحاجـات والرغبات.. هل هو بالعمل المخلص الشـريف أم بالتسـول أم باللصوصيـة والإختـلاس، هـل هـو بـالتزلف والخنـوع والتمسـيح أم بـالعنف والتجـبر والقهر.. هل هو بـالتغريب والتشـبه بـالأجنبي أم بالمحافظـة والتمسـك بالتقاليد.... هذا ما يحدد المرجعية الحقيقية التـي تطبـع السـلوك العـام لمجتمع نقول أنه قهري أو محافظ أو ثـوري أو اسـتلابي.. فالأسـاس هـو نظام المجتمع ذاته الذي يحدد سلوك أفراده، وتغيير هذا النظـام بطريقـة أو بأخرى هو الذي يغير طابع هذا السلوك.. وأي نظام حتى لو كان غريباً ومسـتهجناً يعيـش ويسـتمر ويسـتقر لفـترة، سـوف يطبـع الأفـراد بـه

ويلونهم بلونه ويفرض نفسه عليهم كطريقة ملزمة تحدد شكل السلوك الذي يهدف دوماً لتلبية المصالح.. وهنا تكمن الإختلافات بين النظم المختلفة.. وهنا الكارثة فقد يتسبب نظام ما استقر لسبب ما في حرف شعب بأكمله نحو الفساد والرشوة والمحسوبية وانعدام الحق وغياب الحقوق.. وقد يتسبب نظام آخر بتسويد الجهل على العلم والتخلف على التقدم والخرافة على العقل والعنف على السلم أو الخنوع على الكرامة.. لكن المسألة تبقى في آلية استمرار واستقرار نظام لا يعبر عن حقيقة مواطنيه ولا يعكسها على نفسه.. وهذه الجدلية القائمة بين الحاكم والمحكوم هي الإشكالية السياسية الأساسية التي جاءت أطروحة الديمقراطية للإجابة عليها. بالرغم من أن هذه الديمقراطية ليست سهلة التحقق والوصول في كل الظروف ولكل الشعوب وفي كل الثقافات وفي أي مستوى للتطور.. بل هي رهينة شروط قاسية قد لا تتوفر لأكثرية سكان الأرض حتى الآن والتي تجد نفسها محكومة بأنظمة هي لا ترضى عنها جملة ولا تفصيلاً ولا تقع على طريقة ولا على وسيلة تغييرها. وهذا قد يعود لسبب خارجي أو داخلي، سبب موضوعي أو ذاتي. متعلق في التدخل الأجنبي أم التعرقل الداخلي، متعلق في التركيبة الإقتصادية أو متعلق بنمط التفكير وشكل الثقافة...

الاعتراف بشرعية المعارضة أي بشرعية الرأي الآخر والمصلحة المختلفة، هي التي تسمح بتطور أسهل وأسرع في المجتمعات، ورفضها هو الذي يعسر هذه العملية ولا يلغيها حيث تبحث قوى الرفض والتغيير عن طرق تحقق مختلفة ومعقدة قد تمر عبر تهديد وجود الجماعة ذاتها.. إن رغبة المعارضة والاختلاف ورغبة التغيير تقع على نفس الدرجة من الضرورة، مع رغبة المحافظة والاستمرار والتقليد والتكرار، إن القوى المحافظة تسعى نحو تكريس وتثبيت الواقع الراهن

لأنها ترى هي أيضاً فيه تحققاً أفضل لمصالحها أي حاجاتها ورغباتها، وهي إن تستخدم الفلسفة والفكر والأيديولوجيا أو العقائد، فهي أيضا تسعى نحو المفسوم الفردي منها أي الحصص الفردية.. فكل قوة سياسية محافظة أو تغييرية هي تعبير عن حصص فردية، أي عن اختلاف في المصالح وصراع على تلبية الرغبات، أي صراع على السعادة.. فرغبة الاختلاف هي ذاتها رغبة المحافظة.. لا تقل عنها ولا تزيد من هذه الناحية (كل يرسم طريق تحقيق مصالحه). وكل أيديولوجيا وكل مبدأ وكل عقيدة مهما كان لونها وزركشتها ومهما تحصنت وراء أفكار وفلسفات ومزخرفات لفظية، هي في النهاية مصالح فردية ورغبات وحاجات عطشى تشكو من الظمأ تحرك أفراداً يطيلون أو يقصرون طريقة التعبير عن ذواتهم.. **لذلك في عالم السياسة ليس هناك أفضليات بين الأيديولوجيات فهي من حيث الأساس متساوية بكونها تعبر عن مصالح، وهذا جوهري وأساسي في المجتمع الديمقراطي، وإن أنكرته بعض القوى التي تدعي تمثيل الحقيقة أو حتى التمثيل الإلهي..** فحن نستطيع البرهنة لها بسهولة على مصالحها الذاتية المضمرة وراءه ومن خلاله.. البشر قد يتصارعون على الحقيقة ومن أجلها هذا ممكن، لكن صراعهم هذا صراع مهذب ولطيف وراق.. أما عندما يتصارعون بعنف وغضب وتحدي وقتال، فهم في الواقع يتصارعون على إشباع رغبات وحاجات أقرب إلى عالمهم الحيواني، وعندما يتحول الصراع على الحقيقة ومن أجلها إلى شكله العنيف، فهو في نفس الوقت يعبر عن مضمون مموه داخله يبحث في الواقع عن الشهوات.. إن البحث عن الحقيقة أو نشرها لا تحركه دوافع عنيفة تدميرية، بل فقط رغبات في التفهم والحوار.. وكل صراع هو في الحقيقة صراع على مصالح مادية أقرب للجسد وليس خلافاً روحياً مثالياً على المعرفه..

التزمت

إن درجة توتر وانفعال المتزمتين لا تعكس درجة إيمانهم بل شدة طلب حاجاتهم ورغباتهم الشهوانية المكبوتة، فالتزمت دليل أزمة وهذه الأزمة تقع في مستوى الرغبات والحاجات المكبوتة، وتنعكس على نمط وطريقة التعبير عن الاختلاف.. والرفض.. فالتعصب لوجهة نظر والقتال من أجلها، لا يعبر عن الإيمان المتجرد والمنزه، بل عن الحاجة المسعورة.

إن هؤلاء المتشددين في رفض الآخر يستعينون بما تتيحه لهم الثقافة من مبررات، للتعبير عن رغباتهم الدفينة، في نفي وإقصاء واستئصال الآخر، وهي رغبة عنيفة صراعية تعكس وتعبر عن فشل المشروع الاجتماعي الذي يدفع بمجموعات من أفراده لتبني هذه النظرة والتحلي بهذه الروح العدائية، إنها تعبر عن عمق أزمتهم ومستوى حقدهم وكرههم ودرجة كبتهم.. لا يجب الوقوف طويلاً عند خطابهم السياسي وشروحاتهم الفلسفية (لأنهم سيجدون في كل ثقافة ما يسعون إليه.. العنف الثوري في الفكر اليساري الحديث أو التعصب العنصري في الفكر القومي أو الأصولية في الفكر الديني والمذهبي) بل يجب التوجه مباشرة نحو شروط حياتهم وتخليصها من المكبوتات الموترة والمولدة للعنف.. إنهم في النهاية مجموعة من الشبان الطامحين.. وشدة طموحهم تتناسب مع شدة كبتهم وتوترهم وإحباطهم.. وأهمية مغانمهم المنتظرة تبرر عنف سلوكهم.. وطريقة تفكيرهم هي التي تبرر لهم التطرف.. فهم يقومون بسحب المنطق العلمي الرياضي على المجتمع ويطبقوه على المفاهيم والنظريات الاجتماعية فينشأ لديهم مزيج عجيب مشوه للفكر الاجتماعي.

إن ميل مجموعة من المتعلمين للتمسك الحرفي الدقيق بالمبدأ، هي إسقاط عقلي لمبادئ العلم الحديث الذي تعلموه على المجالات السياسية والاجتماعية.. إنهم يستخدمون طرائق ومناهج العلم الحديث المضبوط بدقة ولا يستخدمون دائماً مقدماته أو نتائجه.. بل فقط طرائقه في التحليل وفي التعامل مع المسائل الاجتماعية والسياسية.. إنهم بذلك يملكون الأداة النظرية لتأسيس التزمت العقلي.. والتي تتلاقى مع البنية النفسية والتركيبة الاجتماعية.. فدور هذه الشرائح المنعصلة عن الجماعة وعن الإنتاج والتي تدعي تميزها بسبب تعليمها ورفضها للظروف البائسة التي تعاني منها الأوطان وهزالة الشعب وسلبيته.. إنها تطرح نفسها كبدائل نوعية متميزة تعوض به عن الضعف الموضوعي، وتشترط لذلك تفويض كبير وانقياد شعبي واسع دون مساءلة.. إنها تقدم أيديولوجيا متزمتة مبنية على استخدام مناهج العلم الرياضي الحديث في مجال السياسة والمجتمع.. فتنظر لكل الأمور بحرفية وانضباط وحدية مطلقة.. فكما هي الرياضيات يجب أن تكون السياسة.. والدين.. الحق حق والباطل باطل، وعلى الجميع أن يتحول إلى أرقام في معادلة السلطة المطلقة المستمرة في كل وقت وكل ظرف.. ليس هناك مكان للخطأ ولا للتهرب.. الكل يجب أن ينضبط ويعمل كما تعمل الآلات الإلكترونية..

يستخدمون ويطبقون قانوناً وحيداً من قوانين العقل وهو التناقض، للتعبير عن أزمتهم وخندقتهم.. إنهم لا يرون إلا جانب مظلم وجانب منير (خير وشر)..كل شيء موظف في معركة فاصلة بين محبوب ومكروه بطريقة ذاتية وبراغماتية.. يجتمع العقل الدوعمائي مع المنهج الرياضي لصنع أيديولوجيا وخطاب سياسي متزمت فاشي ديكتاتوري رهيب.. يتناقض من حيث الجوهر والأساس مع البناء الاجتماعي المرن المتسـ للمتناقضات والذي يولف بينها ويعيش عليها.. فالتناقض دائم وكـ

داخل النفس ذاتها، وداخل المجتمع، وهو جزء أساسي من مكونات الوجود، والتعامل بحدية مع المجتمع، والتعصب لجانب، يعني خنق الدينامية الاجتماعية القائمة على تشارك وتنافس وصراع المستضدات وتنازعها.. وهو في النهاية لا يخدم سوى جانب واحد من جوانب الحياة الاجتماعية، أو بالأصح كما سنرى يخدم فقط وجود ورغبات مجموعة أو نخبة، والتي هي في النهاية لا تزيد ولا تتفوق لا أخلاقياً ولا تكوينياً على أي شريحة اجتماعية أخرى مهما كان لون الريش الذي تلبسه.

لقد تشكلوا في مجتمعاتنا من المتعلمين الذين كانوا يستمدون تفوقهم وحقهم في طلب السيادة على المجتمع من تعليمهم.. إنهم يعتبرون أنفسهم متميزين.. ولهم أفضلية.. وعندما يتنافسون على السلطة فهم في الواقع يتسابقون إلى ملكية الدولة اللاإستبدادية.. فلكل قطاع منهم طريقته في تحويل تلك الدولة إلى وسيلة تسلط وإخضاع، تنتهي في النهاية إلى وسيلة تلبية رغبات وحاجات شخصية.. وهم يختلفون فقط بالظاهر باللون الذي يختارونه لأنفسهم لتلوين عصاباتهم وتمييزها عن بعضها..في الواقع ليس هناك أكثر من رغبات وطموحات شخصية وأنانية تحركها ظروف متشابهة هيأت وساعدت على اكتشاف الطريقة المثلى لتحقيقها، وهي ملكية السلطة الفاشية التي تقودها عصابة تطلق على نفسها ألقاباً مهمة.. وتخدع البشر بنشر ريش أيديولوجي ملون وزاهي، يغطي قذارة سلوك وممارسة وتكوين نفسي حاقد وجائع وصل إلى أعلى درجات الحقد والجوع.. وهذا يفسر النتيجة التي تصل إليها كل سلطة ديكتاتورية.. وتفسر الطريقة الدموية التي يجري بها التنافس على السلطة، أو الطريقة التي تدار فيها هذه السلطة (السوط والبوط والسيف).

نحن هنا نشرح ظاهرة معروفة في عالم السياسة، هي تحول كل سلطة ديكتاتورية إلى سلطة مرتشية تخدم مصالح

نخبة وفئة وتدمر مصالح الباقين، مهما كانت تدعي هذه السلطة، ومهما كانت تحمل من أفكار ثورية، ومهما كانت الجماعة الحاكمة نزيه وثورية أو صاحبة تاريخ عريق ومشرف.. في النهاية تنجلي الأمور عن فساد كبير وقذر.. مهما كان النظام الذي تضعه الجماعة الحاكمة لنفسها ومهما كانت الضوابط الذاتية المعلنة.. فالنتيجة واحدة والمسألة هى مسألة وقت فقط، **لتتحول كل سلطة ديكتاتورية إلى سلطة فاسدة.. وأكرر مهما كانت نوعية الرجال الذين يقودونها.. (كل سلطة مفسدة.. والسلطة المطلقة مفسدة بشكل مطلق).**

لماذا.. لأن كل سلطة (إلا إذا كانت مجرد عمل ووظيفة مضبوطة ومراقبة بشكل جيد) هي امتلاك للقوة والسطوة والأفضلية.. والتي سوف تسمح بتقبل ضغوط الرغبات والحاجات الخاصة.. ثم التورط أكثر في تلبيتها.. وطالما أن الرغبات لا تشبع، فلن تتوقف إلا عندما يأتي المتسلط على كل ما يستطيع وكل ما يقع تحت يديه.. هذا إذا لم تكن الرغبات والحاجات الفردية الأنانية هي التي حركت عنده الرغبة في التسلط.. وهذا ما شرحناه فلا توجد في الحقيقة رغبة في التسلط وحماس له، لو لم يكن طريقة لتلبية تلك الحاجات والرغبات المكبوتة، وأولها حب الظهور واحتلال نقاط الضوء، وثانيها الرغبة في ممارسة العنف على الآخرين وإجبارهم على الخضوع والتذلل.. وصولاً لرغبات التملك الاحتكاري والاستهلاك المجوني لكل ما لذ وطاب من طعام وجنس وسياحة..

فالسلطة الديكتاتورية هي وسيلة الأقلية في تحقيق سعادتهم الجزئية على حساب تعاسة الآخرين وإذلالهم..**ولا يجب علينا أن نصدق أن الرغبة في الخير هي التي تحرك من يجلد الناس ويدوسهم بالبوط (قد يحمل الإنسان الراغب في الخير السيف**

للدفاع عن نفسه فقط لكنه لا يحمله أبداً ويخرج بـه تحت رغبة العطاء.. إلا إذا كان هذا العطاء هو نوع من النكاح العنيف الذي يهدف لاقتحام الآخر وتلقيحه وجعله يحمل في أحشائه نسخة عن الذات..) ما أقوله هنا أن ممارسة العنف مشروطة بالعنف وليس بشيء آخر مخالف، وممارسة المحبة مشروط بالمحبة وليس بشيء آخر مختلف.. هي رغبات بسيطة ومباشرة ومنسجمة.. نحب ونعطي ونساعد.. أو نكره ونقاتل وتعتدي ونحطم ونسلب ونخضع.. كل عنف هو تعبير عن الكره أو بقصد السلب.. وأولئك الذين يدعون أن ممارستهم للتسلط والعنف هي وسيلة لتحقيق رغباتهم في الخير والعطاء فقد أثبت التاريخ كذب ذلك.. وكل جهاد يخضع إلى نفس القانون إذا كان يهدف للسلطة.. إذا كان قتالاً ضد الظلم والاحتلال لا بأس، لكن يجب أن لا يهدف للحصول على الغنائم كما يجب أن ينتهي ويتوقف تماماً عند أول درجة من درجات سلم السلطة، وإلا لكان هدفه غير ذلك.. من في الواقع يستطيع أن يضمن توقف المجاهدين عند هذا الحد، ومن يستطيع أن يكشف مسبقاً عن دوافعهم الحقيقية التي هم أنفسهم قد يجهلونها.. هنا خطورة الأيديولوجيات النخبوية التي تسمح للبعض بالفعل نيابة عن الآخرين.. لذلك قيل (السيادة لا تفوض) فمن يقبل تفويض الآخرين عنه سيجد نفسه قد تخلى عن سيادته وتحول إلى تابع لهم ولمصالحهم الشخصية في نهاية المطاف.

هنا أستغرب لماذا لم يسأل الثوري الطليعي نفسه وهو يسحق تمرد العمال بالحديد والنار، إن كان يمثل فعلاً سلطة العمال ومصالحهم كما يدعي.. لماذا يصر الحزب الطليعي الثوري المثقف على عدم الاحتكام لنتائج الاستفتاء الشعبي الحر إذا كان يدعي طليعيته وصدق تمثيله للشعب، ويصر بكل الوسائل على تزييف وتزوير كل انتخاب يجريه. أين الطليعة الثورية فعلاً من قضية العمال والفلاحين.. إنهم مجرد

تجار كذبوا على أنفسهم ثم كذبوا على الناس وتجاهلوا كل امتحان لصدقهم واندفعوا تحت هيجان رغباتهم، لتنفيذ رغباتهم فكانت الثورة ثورتهم هم، وكان النصر نصرهم هم والسلطة سلطتهم هم.. والسعادة سعادتهم هم على حساب تعاسة من رفعوهم وصدقوهم.. أترك هنا تجربة سبعين دولة جربت هذا الطريق الثوري.

ولماذا لا يسأل الديكتاتور الذي يدعي حب شعبه له.. لماذا هو يصر على استعمال ذلك الكم الهائل من قوى الأمن.. ولماذا هي موجهة ضد الشعب إذا كان محبوباً منه..

ولماذا يمارس المسلم الأصولي العنف ضد المدنيين حتى لو كانوا من غير المسلمين، وإذا قبلنا أنهم مرتدون فهل الأطفال كذلك.... الدين سمح بالعنف لكن في حدود معينة ومشروطة بوسائل محددة..الكل يعرف أخلاق الجهاد وشروطه.. أما انطلاق العنف الأعمى فليس هو تعبير عن الدين ولا عن التدين، بل عن أزمة وضيق حال ذاتي ولأهداف ذاتية بحتة (أي متدين مؤمن يعرف أنه ملتزم بتنفيذ أوامر الله ليس لعجز الله سبحانه عن تحقيق مشيئته، بل لكسب مرضاته، لذلك كانت الوسيلة على نفس القيمة مع الغاية والنتيجة غير ملزمة بل متروكة لصانع القدر) أما أن نستعمل الوسائل المنكرة لضمان تحقيق الغايات حتى لو كانت نبيلة، فهذا يتناقض مع الإيمان بأن الله يسير الكون.. ولا يوجد هناك منطق متماسك يستطيع أن يبرر فيه المتزمت عنفه، غير كون هذا العنف ذاتي المنبع والدوافع، وترجيع للقهر ورغبة في الإفناء وتصريف للحقد.

لماذا يختار هؤلاء ذلك الجانب العنيف من الدين، ويركزون عليه دون سواه من الجوانب الأخرى التي تدعو للعفو والتسامح.. والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.. المسألة تكمن في ذات و في نفس الذي يستعمل الدين ويستهلكه وهنا المصيبة.. مصيبة التضليل الحاصل بيـ

نوعية مستخدم رديئة تغطي نفسها بعقائد كبرى.. ومصيبة الخديعة الحاصلة بأن كل من يدعي التدين أو الإخلاص هو فعلاً كذلك وليس العكس، فالمسألة ليست في الأسماء التي نطلقها على أنفسنا بل في نوعية السلوك الذي نسلكه.

في الواقع إن الحركات الإسلامية الغير ديمقراطية تعيد وتختزل نفس تجربة الحركات الثورية الاشتراكية الفاشية التي بررت لنفسها احتكار السلطة.. وسوف تنتهي لنفس النتيجة، أي أن سلطة الاستبداد لن تولد إلا الفساد.. وليس هناك ضامن ولا رادع داخلي قادر لوحده بدون ردع خارجي على كبح جماح الرغبات الشيطانية الكامنة في النفس

من هنا ضرورة خضوع كل سلطة للمراقبة والمحاسبة ووجوب إمكانية إزاحتها وإسقاطها، فكل إنسان ولأنه إنسان يجب أن يبقى تحت التقييد وتحت مشيئة الجماعة.. وفي كل مرة وتحت أي مبرر تفقد السلطة هذا الشرط، تتحول إلى سلطة فساد وإفساد بشكل طبيعي وأوتوماتيكي.. لأنها ليست بيد ملائكة منزهين بل بيد بشر يقطن الشيطان في نفوسهم.. ليس لأحد أن يدعي حقه في الولاية على أحد.. كل إنسان عليه بنفسه، ولا أحد يعرف ويدرك مصالح الشخص سوى الشخص ذاته.. لذلك كانت الديمقراطية السياسية هي الشكل الوحيد الذي يضمن عدم فساد السلطة النسبي.. أما الأيديولوجيات الأخرى الثورية الطليعية أو الحاكمية الإلهية، فيجب أن تستمر بالخضوع لنفس الشرط، لأنه لا يوجد شيء آخر ضامن، فالسيادة العليا هي للشعب وحده هو وحده بيده حق تقرير ما يصلح له وما لا يصلح.. وكل ما تمسه يد البشر

معرض للفساد ويجب أن يبقى تحت رقابة الناس حتى لو كان تطبيق الشريعة الإلهية.

مسألة الإنسان (الاجتماعي) المدجن، تكمن في الحاجة الدائمة إلى دفن ذلك الجانب الكريه والمقذذ والعدواني داخل نفسه، والحيلولة دون انطلاقه، وقوة النظم والشرائع هي دوماً في فعالية عملية الضبط هذه.. وهنا تقع مسألة السلطة أو شكل السلطة الذي يضمن حماية الشعب من التسلط والعسف والاضطهاد الكامن في داخل كل شخص يمتلك سلطة كبرت أم صغرت..

عادة تستسلم الجموع للجوع والخوف والموت، ولا تنتفض ولا تثور عليه، أما الضيق فقد يبرر فكرة الرفض، لكن الثورة لا يحرضها سوى التحدي فالسبب المباشر للثورات والتمردات ليس في نقص الطعام، بل في شدة الإحباط و قوة الرغبات وقرب الإمكانيات.. أحيانا تتحرك التمردات والثورات لأسباب تافهة، وليست دائماً تتحرك تبعاً لحسابات عقلية مدروسة وسليمة.. فالإنسان ليس عاقلاً على الدوام ولحظات الجنون تمر عليه بين الفينة والأخرى. وهو عندما يخرج في يوم من الأيام أو يثور ويقاتل لا يكون قد استخدم عقله بالشكل الأمثل، بل ربما استسلم للعاطفة وانقاد وراء مجازفة، ومارس نوعاً من الجنون الضروري لإعادة التوازن بين القوى التي تتنازعه بالأساس.

رغبة العطاء والانضمام للجماعة:

الطفل يحب الآخر ويسعى للاندماج معه يأخذ منه كل شيء ويعطيه المحبة والود، وكما يرغب الإنسان بالأخذ هو أيضا يرغب في العطاء، فالآخر المحبوب هو استمرار للذات في الخارج.. ولا شيء أبلغ من حب إنجاب الأطفال وتربيتهم كمثال على ذلك.. إن الإنسان لا يعيش لنفسه فقط ولا يغلق ذاته على ذاته، بل يحب أن يشارك الآخرين حياتهم ويتبادل معهم العطاء والخير والمحبة. فانتشار الخير والمحبة والتضحية سوف ينعكس على الفرد أيضاً، أما انتشار الأنانيات والتقوقع فهو أيضاً سينعكس خسارة للجميع.. الفرد يدرك بسهولة حاجته للجماعة وحاجة الجماعة له، ويدرك فائدة انضمامه للجماعة ويدرك وسيلة ذلك.. إنه يجد في الجماعة القوة في مواجهة الضعف ويجد فيها الاستمرار في مواجهة الفناء،.. والجماعة أيضاً لا تقصر في طلب انضمام الأفراد إليها وإلزامهم على ذلك.. إنها رغبة ذاتية وتلبية لرغبة الجماعة.. ولرغبة الأنا الأعلى المتشكلة التي لا تستقر إلا بعد توحد الأنا والآخر عبر إدماج الأنا بالآخر والتماهي معه.. فالإنسان الذي عانى الألم، لا يحب أن يرى غيره يتألم، والذي عضه الجوع لا يطيق أن يرى جائعين.. والذي تعرض للاضطهاد يكره أن يراه مسلطاً على الآخرين.. الإنسان يرغب في نصرة المظلوم وإسعاف المريض وإعانة المحتاج.. إنه يرى فيهم نفسه ويتقمص امتنانهم وشكرهم ويتغذى عليه..

والإنسان ذاته ممثل له دور في الجماعة ووظيفة، والثقافة القوية والفعالة، هي التي تعرف كيف توزع الأدوار والوظائف على أفرادها وتشغلهم لأداء مسرحية متكاملة على مسرح الحياة، يعرف كل ممثل فيها دوره ووظيفته وواجبه بتناغم وتفاهم مع الآخرين.

الفارق بين الإنسان والوحش هو انضمامه للجماعة، وهذا الانضمام يعني بما يعنيه الالتزام بالضوابط والقيم التي يجب أن توجه السلوك.. أي مجموعة المثل والأخلاق التي تعبر عن خلاصة تجارب الشعوب وخبراتها.. وعملية الانضمام للجماعة والاستغراق فيها تعني جعلها حكمه الداخلي وضميره المحاسب وأناه العليا..

كل الديانات على اختلافها كانت تحرض هذا الجانب في الإنسان وتحثه عليه.. إن الآلهة عبر تاريخها كانت ولا تزال في صف وحدة الجماعة وخدمة أهدافها النبيلة.. والوصول لرضى الآلهة ليس له طريقاً آخر غير طريق الخير والعطاء والمحبة الموجة نحو الأشقاء من بني البشر.. **إن التقرب من الآلهة هو تقرب من الجماعة بامتياز.** وإن نواهي وأوامر الآلهة هي نواهي وأوامر اجتماعية تهدف لتخفيف العذاب والألم والتناحر.. إنها وبالرغم من وعودها الأخروية تتعمد صلاح الدنيا وتطالب بذلك.. **إن جوهر الدين والتقديس يكمن هنا في توجيه الفرد نحو التصالح مع الجماعة وفي خدمتها.. فالدين هو ما دان له الناس أي هو الخضوع لنظام الجماعة وقانونها.. والمقدس هو ذلك القانون الذي تعتمده.. كل ما تجمع عليه الجماعة سيصبح مقدساً إن كان آلهة في السماء أو صنماً حجرياً أو حيواناً طوطماً أو قانوناً وضعياً.** التقديس لا يرتبط دوماً بالرعب الميتافيزيقي.. هناك مقدسات قوية وفعالة وعادية.. (لماذا لا نخلع ثيابنا في المجالس العامة في حين نخلعها بسهولة في غرفنا الخاصة.. إنه أثر الجماعة) التقديس هو حاصل الاجتماع أساساً وأولاً، وكل ما تجمع

الجماعة عليه سيصبح مقدساً له قوة الجماعة، ومخالفته تعني مخالفة الجماعة وتوقع عقوبتها.. وطالما أنه لا توجد مقدسات خارج وبدون الأنا العليا وهي رمز الجماعة، فالجماعة هي الأساس في عملية التقديس، وما تجتمع عليه سيكون مقدساً مهما كان ومهما كبر أو صغر..

إن أهمية دور المقدس في الحياة الاجتماعية كبيرة وأساسية حتى لا يمكن القبول بفكرة وجود جماعة إنسانية بدون وجود مقدس، فحاكم الجماعة ونظامها وقانون وجودها وحارس وحدتها (إلهها) الذي تعبد وتخضع هو ما يعطيها شرط وجودها كجماعة إنسانية وليس قطيعاً وحشياً.. **فالبشر بدون مقدسات وبدون آلهة حقيقية تسكن النفس وتتحكم في السلوك هم وحوش.. فالإنسان موجود لأن الإله موجود، وبالعكس لا مبرر ولا معنى ولا قيمة لسلوك الآلهة بدون الإنسان والوعي الإنساني.. بدون ذلك الوعي ستصبح كل الأفعال الإلهية وحتى الربوبية غير ذات قيمة وغير ذات معنى..** من هنا يجب أن نلاحظ في التحليل الأخير والمعمق ترابط (الإلهي الجماعي المقدس) بوعي الفرد للجماعة وطريقة انضمامه لها.

لكن نزعة الانضمام للجماعة لا تنكر ولا تلغي نزعة الانفصال عنها ومعاداتها، الذي يحدث عادة هو توزيع وتصنيف هاتين النزعتين وتوجيههما وجهتين مختلفتين، بحيث تركز المقدسات المزروعة بالثقافة على توجيه الخير نحو داخل جماعة معينة تقيمها وتعترف بحبها، وتوجيه الشر نحو محيط هذه الجماعة وخارجها.. فالنزعات الخيرة ليست نزعات إنسانية شاملة بالضرورة ودوماً.. هناك مفاهيم عن الجماعة تجتزئ البشر وتقسمهم.. فالبشر كما هو الآخر مقسمين إلى قسمين بطريقة دوغمائية وبراغماتية: قسم محبوب ومرتبط بالأنا وقسم مكروه معاد لها، وهذه هي مشكلة الثقافات والديانات والعقائد،

خاصة في عصر العولمة والتمازج بين البشر.. الآخرون: الجماعة البشرية، الشعوب، الشعب نفسه، الأفراد.. مقسمون، موظفون في مشروعين، واحد يحكمه الحب والآخر يحكمه الكره وهذا شيء اعتباري وافتراضي إلى حد كبير.. (عندما كانت الصواريخ تنهمر على بغداد كان بعض العرب يتألمون، بينما كانت الدول الغربية تذرف الدموع على سكان تل أبيب عندما سقطت بعض الصواريخ عليها، ومن الناس من اختلطت عليه الأمور بسبب اختلاط طرق التوظيف القديمة واختلالها بسبب تغير المواقف والأدوار المفاجئ ولم يعد يعرف هل يفرح أم يحزن على العراقيين أم على اليهود.. والكثير من المجاهدين تدخل قلوبهم الغبطة عندما يشاهدون أشلاء جثث الكفار حتى لو كانوا مدنيين أو أطفال.. ما الذي تغير حتى تحول العداء والكره بين الأوربيين إلى تعاون وتشارك.. إنه التوظيف المربوط بالمصالح.. عندما تغيرت طريقة تحقيق المصالح من تنافس قومي إلى تشارك إمبريالي تغير العداء إلى صداقة والكره إلى حب.. ما الذي يتغير عندما يتحول الود والمحبة بين الأخوة إلى كره وصراع بمجرد حدوث مشكل عابر.. إنه التوظيف، في العلاقات الإقطاعية البطريركية يتم توظيف رابطة الدم بشكل كبير وأساسي، أما في مرحلة طغيان العلاقات الرأسمالية القائمة على الفردانية.. فليس للأخ ولا للقريب وظيفة مهمة في جدول المصالح ونظام الثقافة لذلك يتحول الأخ والقريب إلى آخر عادي وربما منافس وعدو.. بنفس المبدأ تحاول بعض الأنظمة استثارة النعرات الطائفية لتعزيز مركزها وقوتها وحشد عدد أكبر من المترمتين لها في مواجهتها مع شعوبها.. كما تحاول قوى عالمية زرع بزور العداء والكراهية بين الشعوب والأمم والثقافات (بين المسلمين والمسيحيين مثلاً: لاستثارة وتفعيل صراعات تقوم على أساس مذهبي تنتهي بكارثة إنسانية يلحقها المسيحيين بالمسلمين لتشكل عندهم جرح عميق تحرص بعض القوى على تعمقه وفتحه

باستمرار وانتظام لتقطع بواسطته أي رابطة أو امتداد أوربي نحو محيطها الذي يحده الإسلام من معظم جوانبه.. وتلك هي سياسة ثابتة لأمريكا منذ الحقبة الكيسنجرية حيث ترفع أمريكا بشكل متزايد شعار الدفاع عن المسلمين) فتشكيل الستار الإسلامي حول أوربا يدخل في سياق التنافس بين الأقطاب الكبرى وينطبق على شكل ونتيجة وطريقة الصراعات التي نشبت وتنشب في كل مناطق الاحتكاك المسيحي المسلم، وبشكل خاص في جنوب أوروبا التي تتتابع وتتلاحق على نفس المنهج والطريقة.. إذاً هناك توظيف للكره وتوظيف للحب وتوزيع لهما تتم في مستوى الفرد وفي مستويات الجماعات المختلفة بدأ في الأسرة ووصولاً للسياسات العالمية.

إذاً لأسباب مادية ومعنوية يجري تقسيم الجماعة إلى قسمين على أساس قومي أو طائفي أو حزبي وحتى عشائري وشخصي، هنا تلعب الثقافة واللآيديولوجيا دورها الكبير في هذا التقسيم.. فرغبة الانضمام للجماعة لا تصبح رغبة إنسانية نبيلة بدون أيديولوجيا إنسانية نبيلة.. الإنسان كما هو الحيوان ميال لحب بني جنسه، لكن ثقافاته وقناعاته هي التي توجه هذا الحب لقسم فقط بينما تدفع بالكره نحو القسم الآخر، بسبب التوظيف السياسي والاقتصادي والنفسي في المشاريع الجزئية.. كل الديانات حتى الإنسانية منها تقع في هذا الشرك عندما تقسم البشر بين مؤمنين محببين وبين كفار محاربين، بالرغم من أنها تدعي الإنسانية لكنها لا تستطيع أن تتخلى عن إقامة الحدود القاطعة بين عالمين إنسانيين واحد لنا وواحد علينا (إلهي / شيطاني) (خير / شر) (حب / كره) من منظور ذاتي يشترط تغير الآخر وقبوله الاندماج تحت خيمة الأنا..وكل مبدأ وكل دين يدعي أفضليته على غيره ويحاول أن ينكر على غيره حقه بالتساوي معه، ويحاول بكل الطرق الأسطورية والسحرية والفلسفية أن يبرر نزعته الغير إنسانية

(بالمعنى الشمولي) و المغطاة بأهداف إنسانية افتراضية تلغيها الممارسة الواقعية التي تحول كل عقيدة إلى عقيدة تصادمية تنفس دافعين متناقضين دافع الحب ودافع الكره، فكل الديانات المعروفة اليوم لا تكتفي بالتعبير عن دافع الحب لوحده بل لا بد لها من توظيف الكره أيضاً، مما يتسبب في ضياع قيمة النزعات الإنسانية عندما تسقط في شرك التقسيم الحزبي والطائفي والمذهبي.. وتعود اللعبة إلى قاعدتها الأساسية (حب وكره) على درجة كبيرة من التعادل. وتصبح المسألة هي مسألة توزيع وطريقة توزيع هذا الحب وهذا الكره، وشكل تقسيمه على الآخرين.. المسألة دوماً هي مسألة من نحب ومن نكره وليست نحب الكل أو نكره الكل.. لذلك لا توجد أفضليات وفروقات كبيرة بين العقائد من هذه الناحية.. إذا كانت تقوم على تقسيم البشرية بطريقة دوغمائية (الدوغمائية هي منهج عقلي يقوم على مبدأ واحد من مبادئ العقل وهو التناقض، فيقسم كل شيء إلى قسمين مختلفين متناقضين يوزعهما على عالمين واحد يقع في موقع المحبوب وآخر يقع في دائرة الكره والحقد، واحد نتوجه له بالاحترام والمودة وآخر بالكره والعدوان.. كما يقوم بتلخيص دائرة الحب حول موضوع محبب وتركيز دائرة الكره حول مركز بغيض) مهما كانت الطريقة التي تقسم بها: فكرية فلسفية عقيدية إيمانية أو شوفينية عصبية براغماتية.. فكل العقائد الدوغمائية متساوية من حيث الدور والوظيفة، وتخدم نزعتين متعارضتين موجودتين معاً عند الإنسان هما نزعة الخير (نزعة الانضمام للجماعة، ونزعة الشر، نزعة العدوان عليها).

والتوحد مع الجماعة والانضمام لها والتصالح معها ليس فقط بهدف الحصول على ثنائها، بل أيضاً للهروب من تعنيفها، إنه طريقة الخلاص المثلى من الدخول في تنازع خاسر معها.. لكن هذا الانضمام للجماعة والتمازج معها ليس محكوماً بالدوام والثبات سرعان ما تنمو قوى

معاكسة يصبح التغلب عليها هدف الجهاد الأكبر. والتصوف هو إحدى طرق التخلص من تلك القوى والذي يقوم على إنكار النفس والجسد وتجاهلهما التام.

الإنسان الصوفي ينكر فرديته ورغباته وشهواته الخاصة.. إنه يضحي بها جميعا في مقابل المتعة الكبرى متعة الاتصال بالآلهة والتوحد معها.. إنها نشوة التصالح المطلق بين الأنا والآخر عبر إنكار الأنا وتمثل الآخر تمثلا تاما.. **ولما كانت فكرة الصوفي عن الآلهة بأنها تسكن في أعلى ذرى السماء، فهو يسافر نحوها بعقله وليس بجسده، ليس في السماء الخارجية بل عبر التأمل الذهني في فضاء الجماعة الثقافي، وصولا إلى خلاصتها وزبدة فلسفتها ورمز وجودها الممثل بفكرة الإله ذاتها، والذي يمكن الوصول إليها والاتحاد بها وتقمصها بعد إضاءتها للنفس وتصحيحها لدوافعها ونزواتها..** ولما كان الفكر التوحيدي يجمع بين مفهوم الإله الاجتماعي الصفات الذي يحلل ويحرم ويجازي ويعاقب.. وبين مفهوم الرب الذي هو التصور الإنساني المؤنسن عن القوة المحركة في الطبيعة والتي تحيي وتميت وتسير الكون، يقع المتصوف في ورطة تخيل امتلاك قدرات سحرية تجعله قادرا على التحكم بالطبيعة واصطناع الخوارق، مستمدة من القوة الروحية التي توحد فيها.

(إن الترميز الميتافيزيائي للطبيعة عبر مفهوم الرب (المتعدد أو الواحد) هو في الواقع ناتج عن استمرار الحنين لتوحيد الآخر تحت خيمة الآخر المحبوب. أي حنين الإنسان إلى أنسنة الطبيعة وتدجينها وإخضاعها لرغباته، وهو الذي يشجع عنده التصورات الميتافيزيائية والأفكار الأخروية، وهي التي تبرر عنده ترميز القوى المحركة في الطبيعة برموز إنسانية أو متوافقة مع الإنسان، أو على الأقل يمكن للإنسان التفاهم معها ومخاطبتها والتقرب منها، إنها تهيئ لتخفيف

قلق الضعف القائم في عملية مواجهة الإنسان للطبيعة القوية والقاسية.. إنها تحذف الخوف والشعور بالهزيمة والإحباط وتجد حلولاً فعالة في قبول الخضوع والاستسلام لها، والتقرب إليها بالعبادات والطقوس والقرابين)

بسبب فلسفة التوحيد فإن الصوفي يتخيل وهو يتحد بالإله وهذا ممكن عن طريق المطابقة بين خلاصة الثقافة الأخلاقية وبين الأنا الأعلى الفردية.. يتخيل قدرته على الاتحاد بالرب أيضاً، وهذا مستحيل، أي يتخيل قدرته على المشاركة في الخلق وفي تسيير الكون.. وهذا غير ممكن التصور لولا فلسفة التوحيد التي تمزج بين مفهومي الربوبية والألوهية.. من هنا ينشأ ذلك الخلط المشوش بين نزعة الصوفي المثالية المتعالية، وبين سقوطه في شرك التخيلات السحرية الشاذة والغير منطقية التي تشوه النزعة الصوفية وتفقدها سحرها وقوتها..

بالحب يتقرب الصوفي من الجماعة ومن خلاصتها الثقافية التي تتربع في أعلى ذرى فضاء الجماعة الثقافي.. إنها الخلاصة الأخلاقية الصافية النى اختزلتها خبرة الجماعة في الوجود الإنساني عبر العصور.. بإفناء الفردي بالجماعي والخاص بالعام، يزول التناقض بين الفرد والجماعة ويتخلص الفرد من فرديته الفانية المحدودة القدرة ويتحد بالجماعة القوية المستمرة..

إن الأنبياء والأولياء والأئمة ليسوا سوى صوفيين أفنوا ذواتهم في الجماعة، ثم بتوحدهم معها انطلقوا من خلاصتها الخيرة لإعادة تنظيمها.. بواسطة فهمهم العميق وإدراكهم الشمولي الذي يشبه المصباح الذي ينير لهم دربهم ويدلهم على الخير الذي صار جزءا لا يتجزأ من ذواتهم التي اخارت إلغاء فرديتها..

وكل إنسان متصوف بدرجة ما، وكل إنسان مريد في مدرسة الجماعة.. لكن الوصول إلى تلك الدرجة من الوجد والذوبان، شيء لا

يقدر عليه إلا نخبة قليلة متدربة على الاستغراق والتأمل الداخلي.. والوحدة التي يدعيها الصوفي والاتصال الذي يدعيه، ليس سوى تعبير عن العلاقة التصالحية الودية القائمة بين الذات وبين كائن تصوري يسكن داخل النفس ويرمز للجماعة (الإله).. فسفرة الصوفي تتم في مخيلته وبواسطتها، وكل عمليات التصوف تتم عبر التأمل الداخلي..

لكن يجب الانتباه إلى أن إنكار الجسد لن يكون ممكنا على نحو مستمر أو على نطاق واسع، بل إن إنكاره قد يؤدي إلى نتائج معاكسة.. لأن كل كبت سيعبر عن نفسه.. لكن غالبية الصوفيين هم في الواقع كانوا قد أدمنوا الحرمان.. وما كان أسهل عليهم من التوقف عن السعي الفاشل لتجاوزه.. فالتصوف هو عقيدة فقراء المدن المحرومين من الكفاية المادية ومن إمكانية الثورة والتمرد.

الانتماء للجماعة شر لا بد منه: إما أن نعود للحياة الطبيعية الوحشية ونخسر منجزات الحضارة التي هي اجتماعية بالتأكيد.. أو أن نقبل بذلك القيد ونجمله وندفع الثمن الباهظ في تشويه طبيعتنا وتصنيعها وتطويعها لتتكيف مع واقع صنعي.. لذلك عندما يعود الإنسان لطبيعته لا يكون قد ارتكب جرما خطيرا، فالبعض ينكرون ما تطلبه الجماعة منهم ويقاومون بقوة أسرها وقيدها، بنفس الوقت الذي يسعى فيه البعض لإفناء ذواتهم وتذويبها في الجماعة بطريقة صوفية، فكلا الحالتين شكلان من أشكال السعي الإنساني لتحقيق الرغبات، ليس بينهما تفاضل كبير. في الأولى رغبات تعلن عن سعيها للتحقق مباشرة دون لف ولا دوران في مواجهة الجماعة وربما ضدها، وفي الثانية رغبات ندعي تجاهلها وإنكارها ثم نسعى لتعويضها عن طريق آخر مستور ومغطى برغبات جماعية يجري تقسيمها في النهاية لحصص فردية. مرة نغامر ونواجه الجماعة بفردية قوية، ومرة نحتال على الجماعة

وتندمج فيها بنكران تمثيلي لا يلبث أن يكشف عن ذاته عند دنو المغانم.

للجماعة قوة وأثر كبير على الفرد وعلى نشأته.. لماذا إذا يولد ابن المسلم مسلما وابن البوذي بوذيا، لأنه يجد نفسه منغمسا في جماعته ومندخلا معها ولا يملك جماعة أخرى يطلب الانضمام إليها.. إلا فقط في مراحل التغيرات التاريخية، أو في الدول الحديثة، حيث لم تعد وحدة العقيدة ذات دور في تنظيم البشر، بل حلت الدولة والمؤسسات السياسية مكانها، وصارت الحرية الفردية شرط الخضوع السياسي. ومع ذلك سيبقى كل قانون قاصرا ما لم يتحول إلى قناعة وضابط داخلي.. فنظام الردع لم يوضع إلا لردع القلة القليلة.. التي لا تقبل الخضوع الطوعي.. إن هناك مقدسا وراء كل قانون وقبل كل دولة ونظام سياسي.. هناك مجموعة من المبادئ والمفاهيم يتفق عليها بداهة، تبرر وجود الوطن والسياسة وتفلسف القانون.. إن كانت نظرية قومية شوفينية أو نظام تعاقد ديمقراطي أساسه الحرية.

لكن الانضمام للجماعة في ظل الدولة الحديثة يتم عن طريق اختيار نوع الجماعة أو الطريقة التي نفضل أن تكون الجماعة عليها، فليس الانضمام سلبيا فقط، بل هو انضمام إيجابي فاعل، من خلال الحزب والجمعية والنقابة والرأي والموقف.. إن مسعى الانضمام هو مسعى معترف به عن طريق الانضمام للحزب الذي يلخص الطريقة التي يرى فيها الفرد جماعته ويفضل أن تكون عليه.. فالأحزاب السياسية والنوادي والجمعيات ومؤسسات المجتمع المدني، هي شرط استمرار الجماعة الحديثة، فبدونها تتحول السلطة إلى استبداد وإلى قوة مدمرة لوحدة الجماعة، وليس وسيلة لتجميعها ولحمها وصهرها.. بدون حرية الرأي والتعبير لا يوجد انضباط سياسي، وبدو

حق الاختلاف لا يوجد قبول في الوحدة، وبدون حق الأقلية في الوجود والتعبير، لا تحد الأغلبية شرعيتها..

لكي أكون سعيدا يجب أن يولد سلوك الآخرين لي السعادة، ويجب أن أعيش في وسط سعيد.. وتعاسة الآخرين تسبب لي التعاسة وألمهم يؤلمني لذلك كانت السعادة أيضا مفهوما جماعيا ومشاركة جماعية، والسعادة مفهوم مشترك وعيش مشترك يجري تقاسمها بين الأفراد وتوزيعها واستعارتها.

في النظام الرأسمالي القائم على الفردانية لا أحد له مصلحة بوجود الآخر.. الآخر منافس ومعاد أو في أقل درجة هدف لنا كمستهلك أو زبون أو عامل.. إنه يدخل في حساباتنا كشيء نستعمله.. الآخر الذي لا نستعمله فهو يستعملنا، وفي حال الانفصال التام يعني أنه منافس ومهدد لنا في حال تراخينا قليلا، فأطماعه لا حدود لها سوى مقاومتنا.. إن التسابق المجنون واللامحدود على الثروة والسيادة والاستهلاك، تجعل الإنسان قادر على ابتلاع العالم نظريا.. وهذا التوليد المفرط للنزعات الخاصة، سيولد درجة من التوتر والعداء بين البشر الذين بدل أن يتعاونوا يدخلون في معركة تنافس غير شريفة في غالب الأحيان. وذلك يظهر جليا وبشكل سافر في البلدان المتأخرة والتي تقوم فيها دول هزيلة، حيث يحتدم التنافس الأهلي الذي يعبر عن حرب حقيقية، يحارب فيها الجميع ضد الجميع..

فيما مضى كان بني البشر يتعاونون ويتشاركون على الأقل في مواجهة الطبيعة القاسية التي لا يملكون الكثير في مواجهتها.. كانوا يتعاونون على تأمين الأمن والدفء والطعام.. لم يكن الآخر منافس للآخر بل شريك له في المصيبة.. إن قسوة الطبيعة وشقاء الحياة، كانت تطغى على كل شيء، وتحول حياة البشر إلى تشارك وتعاون

وتوحدهم في وجهها.. ومع تطور البشر وتطور أدواتهم ونشوء نمط الحياة الفردانية، وقدرة البشر على تسخير أعداد متزايدة من الآخرين للخدمة.. تغير الحال.. لم تعد الطبيعة هي العدو الأول، بل صار الإنسان، وصارت الطبيعة هي الملاذ من ظلم الإنسان للإنسان، بعد أن كان الإنسان هو الملاذ من قسوة الطبيعة.. الطبيعة كانت تحتوي الكثير من الفراغات التي تستوعب نشاط البشر.. ولم يكن الناس قد امتلكوها كلها.. فحصة الآخر من الطبيعة تقتطع من الطبيعة الوحشية وليس من حصص الآخرين.. من له القدرة على العمل يستطيع أن يعيش فيها.. وتعاون البشر لا يعني تنافسا بل قوة.. اليوم كل الطبيعة والمياه والهواء مملوك.. وليس هناك من مكان لك سوى ما تملك، وما تملك مهدد بالتحول لغيرك، بل يطمع به غيرك ليل نهار، فغيرك يتمنى لك الفشل والفناء لكي يحتل مكانك.. الآخرون ينتظرون بل يسعون بجد لإزاحتك واحتلال مكانك.. هذه هي قوانين الحياة الرأسمالية.

البشر في القديم كانوا يسعون إلى بعضهم لتقاسم الألم والمرارة.. لقد كانت الحياة فيما مضى أفضل من الناحية الاجتماعية.. لكنها لم تكن أكثر سعادة.. إن ما يكسبه الإنسان في العلاقات القديمة لا يعادل ما يخسره بسبب قساوة الحياة.. إن شروط العيش المادية الحديثة هي التي جعلت الحياة سهلة وممكنة بدون الآخر بل بالرغم من عداوته.. وهذا لا يعني أن تلك النتيجة حتمية ونهائية، فلا شيء نظريا ولا عمليا يمنع البشر من العمل على إلغاء شروط الصراع القائمة بينهم.. طالما أن نظام حياتهم هم يختاروه لأنفسهم. حتى الآن نحن نفشل في تجديد قوى التعاون والتشارك مع الآخرين، بعد الخلاص من إرهاب الطبيعة، ما تزال نقاط الاجتماع الحقيقية تظهر جلية عند تعرض البشر للخطر.. وفي أماكن قهر الطبيعة لنا.. إن التجمع الوحيد القوي

والفعال اليوم هو الجنازات والموت وعيادة المرضى.. الموت هو الطقس الوحيد الذي ظل يجمع البشر.

كان التدين وهو عملية الانضمام للبشر، يعني المحبة والتسامح واقتسام الخبز والخمر والألم.. الدين اليوم يمارسه البعض كوسيلة لتصريف العنف والتسلط والخداع.. كانت المسارح الشعبية تعقد في كل مكان وكل وقت، في الأفراح وفي الأتراح وفي الأعياد.. كان المسرح الاجتماعي الملحمي شغال وفعال في حياة الجميع ويشارك فيه الجميع.. المراسم الآن شكلانية فاقدة للروح، لم يعد للموت ولا للفرح ولا للعيد معناه ولا طعمه.. ولم نبحث عن طرق أخرى لإيجاد مسارح أخرى تتناسب مع نمط آخر جديد من الحياة..

من هنا ضرورة اشتراك الناس في تقرير مصيرهم والتخطيط لحياتهم، وعدم تركها لتسير عمياء تدفعها شروط عمياء يحكمها التنافس المجنون.. يجب أن نخرج من الدائرة السلبية فيما يخص نمط الحياة، إلى دائرة الفعل والتأثير ليس فقط في حياتنا الشخصية بل في نمط حياتنا الاجتماعية..

رغبة التصالح مع الطبيعة:

وكما هو الحال في التصالح مع الجماعة والانضمام إليها، يحاول الإنسان التصالح مع الطبيعة المتفوقة عليه.. فالإنسان الذي يريد اتقاء شر الطبيعة وخطرها الداهم عليه، يسعى بكل السبل لضمان ذلك دون جدوى، فهو يبقى أسير سيطرتها الكامل، ويبقى خاضعا لها على طريقتها التي لا تعجبه، لذلك تتخذ وسيلته للتصالح والتعايش معها طابعا سحريا، أي لا يستطيع تغيير الطبيعة، بل يغير طريقة وعيه لها وطريقة إحساسه بها.. فبدل أن تكون الطبيعة خطرا داهما عليه يتربص به (المرض والحوادث والشيخوخة والموت).. تصبح هذه القوى العمياء خاضعة لمشيئة وإرادة خيرة تحب بني البشر وترسم مصيرهم وتتكفل بهم.. فمنذ القديم قرر الإنسان فصل الحركة عن المادة، وتصور قوى محركة مفارقة تندس في الطبيعة وتحركها، الطبيعة بدونها ميتة وبها تحيى وتعمل وتتحرك.. وانفصال المادة عن الحركة فلسفة قديمة مشتقة من تجربة الإنسان البدائي مع الموت (هناك شيء غير مفهوم يغادر الإنسان فيتحول إلى جيفة بعد أن كان شيئا رائعا وجميلا)، لم نكن البشرية حتى عهد قريب تتصور امتزاج الكتلة بالحركة وتشابكهما، أو تقبل بهذا التصور الغريب. هكذا جرى تحويل تلك القوى التي تحرك الطبيعة إلى قوى مؤيدة للبشر وتتبنى قضاياهم وترعاهم وتساعدهم، ثم بواسطة فلسفة التوحيد تم دمجها مع الآلهة التي تعبدها الجماعة والتي تحولت من ملوك أرضية و أصنام مصنوعة إلى آلهة تسبح في السماء. فصار الإله الإنساني حارس القيم الاجتماعية النبيلة، هو الذي أوجد الكون وسيره أيضا.. في النهاية صار بإمكان الإنسان أن يدافع عن نفسه أو على الأقل يريحها في صراعها مع الطبيعة المتفوقة بواسطة

الاتصال مع هذه القوى الجبارة، وطلب مغفرتها وعونها، وهذه هي الفكرة الأكثر حضورا في الديانات، والأكثر قدرة على الانتشار في العالم حتى اليوم. يجب التوجه بالقرابين ليس للحجارة والبراكين والأنهار وطلب مغفرتها ورحمتها، بل فقط للقوى التي تحرك البراكين وتزلزل الجبال وتمتلك سلطة الحياة والموت.. وهذه القرابين ليست لحما تأكله ولا نساء تغتصبها، بل هي فعل الخير والتصدق على بني البشر أنفسهم الذين هم مخلوقات الآلهة المفضلة. هكذا عاد الإنسان إلى نفسه بعد التفاف سحري رائع.. فلطف شعوره بالقلق وجعل مصيره برعاية يد أمينة قادرة، أوكل أمره إليها، وتقرب منها بالعبادات والصدقات، وفعل الخير الذي يعود عليه وعلى جماعته بالنفع.. وكلما شعر بالقلق لجأ إليها وسألها الطمأنينة. عبر تعزيز الانتساب للجماعة وتقمصها والاندماج فيها، فيختلط الجماعي بالإلهي ويصبح هو المهرب والملاذ..

التدين خلاص وراحة وترضية.. نرضي الخالق، ونسلم أمرنا له، ونرتاح من قلق ليس لنا طاقة عليه، نبني مفاهيمنا عن الخالق العظيم، ثم نحمل على علاقتنا به كل ما نريد ونرغب ونشتهي، نحن نعبد الآلهة لكن في الواقع نحن نعبد أنفسنا قبلها، ونسخرها ونوظفها في خدمتنا قبل أن نتوهم أننا في خدمتها. التدين ضرورة نفسية وطريقة سحرية للخروج من المواجهة المرة بين الإنسان والطبيعة، ويحقق رغبة الإنسان في التصالح معها والحصول على مساعدتها. الدين هنا حاجة وضرورة، يبحث المرء عن مبرر لتلبية تلك الضرورة تحت ضغط الحاجة.. إنه ضرورة وشكل من أشكال رفض الضعف والوحدة والفناء. إنه جزء من رغبة الحياة وأحد الوسائل السحرية في التعلق بها.

إن الإيمان بالرب الخالق هي رغبة أكيدة عند البشر، لأنهم يعانون من الخوف والحرمان الروحي ويبحثون عن الطمأنينة.. إنها طريقة قديمة جدا وشائعة جدا وما تزال تتمتع بقوة وحيوية

حتى الآن.. فكما اختصر الإنسان الجماعة في نفسه وشكل مندوبا عنها يمثلها في ذهنه.. يقوم باختزال الطبيعة ويشكل مفهوما ما عن محركها وصانعها في الطبيعة أولا رمزه في البداية بحيوان طوطم أو قوة أو عنصر من عناصر الطبيعة أو عنصر خفي مندس فيها أو قوة مفارقة لها وتحركها تسكن أعالي السماء، أو بعد فلسفة التوحيد هي ذات القوة التي رمز بها الإنسان الجماعة وجعلها تسكن النفس. وفي البداية حاول التودد لها والتقرب منها بالقرابين والتذلل والرجاء والخضوع، ثم بفعل الخير والمحبة والتسامح.. ومع ذلك لم يتوصل الإنسان إلى حل مرضي لنزاعه المستمر مع الطبيعة ولهزيمته الدائمة أمامها، فصورة الحياة الحالية ليست على أحسن وجه وهذه الدار هي دار فناء لا تعبر عن دار البقاء المثالية التصور، وهي بدون شك فاسدة وخالية من المعنى ومن السعادة. فعلى المؤمن أن لا يتوقع السعادة في هذه الحياة، وأن يسعى إليها في حياة أخرى تحدث فيما بعد أو بطريقة أخرى..

لقد حاول الإنسان التخلص من تعاسته وقلقه وعاش سعادة الطمأنينة وراحة التوكل بواسطة وعيه فقط، ودون تغيير الطبيعة التي بقيت كما هي.. **هذه هي إحدى أهم وأعمق وأروع الحلول السحرية التي استعملها الإنسان وما يزال، في مواجهة قلقه وخوفه وشعوره بالضعف في مواجهة الطبيعة التي تفرض عليه شروطها القاسية (ضعف الجسد البشري وتعرضه المستمر للمخاطر والأمراض وحاجته المستمرة للجهد والعناء ومواجهته الحتمية لفكرة الفناء).** لقد تجسد رفض الإنسان لهذه الهزيمة باعتباره أن شكل الحياة التي نعيش ومحتواها لا يمكن أن تكون هي الشكل النهائي للحياة التي أرادتها الآلهة..أو التي يأمل بها

الإنسان.. إن السعادة الحقيقية هي تلك السعادة التي تنتظر المؤمن في دار الخلود..

هناك ديانات مختلفة تتعامل مع هذا الموضوع بطريقة مختلفة فالبوذية مثلا ترى أن الحياة ألم وشقاء وعذاب.. والسعادة مستحيلة بشكل مطلق، ولا مجال أمام الإنسان للخلاص من الألم سوى الإنعتاق والتخلص من العودة المتكررة للحياة و الخروج من دورتها المتجددة (عبر آلية التقمص)، وهذا يتطلب الإفناء الكامل للنفس وتجاهلها التام، وسلبيتها المطلقة، عندها فقط يمكن الإنعتاق والخلاص من دوامة البؤس والشقاء المتجددين (النرفانا) أي عندما تصل الرغبة إلى درجة الصفر. **فعندما نصبح لا شيء يصبح الألم لا شيء**. بإعدام الذات والرغبة ينعدم الشقاء والألم، وباستمرارهما يستمر.

في مقابل هذه الطريقة السلبية كانت الطريقة الإيجابية تستثمر كل ممكن في سبيل تحسين حياة الجماعة، وتحاول استثمار كل خوف وقلق لمصلحتها، لقد فلسفت وفسرت كل ما يحدث للأفراد من هذا المنطلق.. واستثمرته في تدعيم قوة سلطة الخير وسطوتها، وفي تدعيم قوة الجماعة وتماسكها.

أما البشر الذين لا يؤمنون فعليهم تحمل قلق الفناء وخوف الكوارث والأمراض دون مساعدة ولا عون، وحدهم في مواجهة قاسية مع حقيقة قاسية، وهذا يتطلب قوة وشجاعة وصبر لا يتوفر عند الكثيرين. وهنا يجب التمييز بوضوح بين غير المؤمنين بمفهوم الرب الميتافيزيقي، وهذه مجرد قناعة ذاتية، وطريقة مختلفة في تفسير الكون، وبين غير المؤمنين بالإله (أو الحاكم الأخلاقي للجماعة) وهذا له انعكاس سلبي على الآخرين، وقد يبرر وينشط سلوك ضار بهم، وهذا التمييز ضروري بعد التشويش الذي أحدثته فلسفة التوحيد عندما دمجت وبطريقة قاسية مفهومين إنسانيين مستقلين عن شيئين مختلفين هما

الطبيعة والمجتمع، كما يجب التنويه أنه في الدول الحديثة لم يعد يركن لقوة الوازع الديني أو الداخلي، بل تكفلت أجهزة الدولة برعاية وتأطير سلوك البشر، ومراقبتهم ومحاسبتهم.

إن رغبة التصالح مع الطبيعة ومشاركتها وتبادل الهدايا معها وأنسنتها، تتجلى بحب البشر للطبيعة وتناغمهم معها وعيشهم فيها.. نزرع الأشجار والورود ونعتني بها، ليس فقط بدافع النفع الطعامي والصناعي، بل بدافع النفع المعنوي: جمال أزهارها، عطرها الجميل خبرها وثمرها، كل ذلك يدغدغ ليس فقط حاجتنا الشرهة ومعدتنا، بل أيضا شعورنا بعطف الطبيعة وحبها لنا وعملها من أجلنا.. ونحن عندما نربي حيوانا وندجنه، نرمي بالأساس للاستفادة منه وتسخيره بطريقة قاسية، لكننا أيضا نتعاطف معه ونشاركه ونشفق عليه.. نتعايش معه برفق وونام ولو كنا لئاما في النهاية ونسوقه للمسلخ.. وأحيانا تقوم علاقة حميمة مع الحيوان خاصة ذلك النوع الذي يملك وسائل تعبير يفهمها البشر.. عندها تنشأ علاقة عاطفية بين الإنسان والحيوان، البشر يسرون بتقديم الطعام والدفء للحيوان زميلهم في الطبيعة، الذي رضي بالإنسان وتخلى عن وحشيته، وقبل العيش في كنفه وهو بذلك يعبر ويرمز لحلم الإنسان الكبير في السيادة، والحيوان يبادل البشر الود ويشكرهم على ما يقدموه، ويقبل التخلي عن وحشيته مقابل معروف البشر عليه.. إنه شكل أرقى للعلاقة التي تقوم بين الإنسان والطبيعة. وكلما كان الحيوان أقرب للبشر وكلما امتلك الشارات التي يفهمها البشر.. كلما اشتد التعاطف.. وربما كان هذا النوع من التعاطف والتشارك هو الذي يقف وراء الممارسات الطوطمية القديمة.. هناك حيوان رمز لقوى الطبيعة نكن له المودة والإحترام بل نشاركه المصير والسعادة والأصل.. بينما توجه حرابنا وحناجرنا لبقية الأنواع

ونعتاش عليها، منذ القديم أدرك الإنسان أنه يقسو على الطبيعة ويعاملها بعداء ظاهر، وصار يخشى أن تعامله بالمثل، فبدأ يتودد لها ويتقرب منها على الأقل عبر أحد رموزها.. فنحن عندما نربي حيوانا وندجنه ونجعله أليفا.. لن نكون قد خرجنا عن طوطمية قديمة حديثة، وحققنا رغبة قديمة حديثة في التصالح مع الطبيعة والتعايش السلمي معها، ورغبة في التفوق عليها وتطويعها..

لماذا نحتج على أولئك الذي يشفقون على حيواناتهم، ولا يشفقون على بقية بني البشر الذي يموتون من الجوع، وقد يكفيهم للبقاء على قيد الحياة ما تأكله كلاب الأغنياء.. هل يستطيع هؤلاء أن يلبوا الرغبة التي يلبيها من يأكلون مكانهم ويعيشون أحسن منهم.. المسألة ليست مسألة مفاضلة بين حق البشر في الحياة وحق الكلاب.. بل المسألة في ضرورة فهم الدور الذي يلعبه الحيوان الأليف في حياة البشر، والرغبات التي يحققها الإنسان من خلال رعايته والعطف عليه.. والدور الذي يلعبه بقية البشر، ودرجة التعاطف معهم ودرجة توظيفهم في تلبية المشاعر، البشر الباقين ليسوا كبقية الحيوانات، إنهم لا يمثلون الطبيعة المتناحرة مع بني البشر بل يقفون في صف واحد في خندق العداء للطبيعة، وربما في خندق العداء لنا، فهم أنداد وأخصام.. لا يقبلون تفوق مطلقا عليهم ولا يقبلون الانقياد بل يصارعون ويحتجون وينازعون ويقاتلون..

وعندما نشفق على حيوان أليف نشفق على أنفسنا ونلبي رغباتنا الكثيرة والمعقدة.. وعندما نحزن عليه نفقد مشروعا وعنصرا له دور ووظيفة في حياتنا، نحزن عليه كما نحزن على كل ما نخسر.. ونتألم لألمه ونكره موته وفراقه.. ربما يكون حزننا على موته أكبر من حزننا على موت البشر حتى المقربين.. وذلك يعتمد على الدور المنوط به وعلى المساحة التي يحتلها من النفس.. فالبشر الآخرين ليسوا

موظفين في برنامج الرغبات، بما فيها رغبة التعايش مع الطبيعة ومساكنتها، ورغبة التسلط عليها أو رغبة التسلية واللعب والمرح معها. في حين قد يكون الآخر رغم تفوقه على الحيوان بالقيمة، أقل وظيفة منه عندنا، لذلك نتعاطف معه بدرجة أقل ونشعر بخسارته بدرجة أقل.. بل ربما يكون الآخر من البشر وحتى لو كنا نعايشه ونتعامل معه دوما، ربما يكون مكروها وربما موظفا في دائرة الأعداء، الذين نتوجه لهم بالحقد والكره وربما الرغبة بالموت والإفناء، فقد يقتل البعض البشر ويرتكبون المجازر وهم باعتقادهم أنهم يستحقون الشر ويدوسون الباطل،كما يضحي البعض بالغالي من أجل الحيوان إذا كان يلعب ذلك الحيوان دورا ذا أهمية في حياته. هنا نوضح الوظيفة التي توظف بها الأشياء ضمن برنامج إشباع الرغبات، وهنا تظهر هذه الرغبات فقر الحياة الاجتماعية وضعف قوة المشاركة بين البشر، ومساوئ الحياة الفردانية الفقيرة بالمعاني والعطاء، والتي تهيئ الفرصة للتعاطف والتشارك مع الحيوان أكثر من البشر المزعجين..أن نحب الكلاب والقطط هو تعويض لنقص في الحب.. أيضا هو نوع من التصالح والتعايش مع الطبيعة، لا يغني عنه حب كل بني البشر.

وهنا قد نبكي على حيوان ونحتج على تعذيبه أكثر مما نبكي على بشر نعذبهم نحن، وهنالك أشخاص لم نعايشهم ولم نشاركهم، لكننا نتألم لخسارتهم لأنهم كانوا موظفين عندنا، ولهم دور يشبعون به بعض رغباتنا.. فالبكاء كما أشرنا هو التعبير عن النقص والخسارة والحرمان. وهذا خاص بكل فرد وخاص بمشروعه وطريقته في إدارة حياته ورموزها.

اشتراكية السعادة:

يرتبط الفرد بشكل حميم بالجماعة، يعيش في داخلها وتعيش في داخله، يعتبرها مسؤولة عنه كما يعتبر نفسه أحيانا مسؤولا فيها.. يحب أن يشاركها وهو يشاركها بالفعل، ويحب أن تشاركه وهي تفعل، هناك تلاحم عضوي وتشارك وميول مزدوجة من الطرفين للتلاحم، لذلك يظهر ميل الجماعة لصباغة وتلوين الأفراد حسب ما تشتهي،كذلك ميل الأفراد لاستغلال الجماعة وتسخيرها.. فيميل الفرد نحو تقاسم كل شيء (السعادة والألم) مع جماعته.. والكثير من المشاعر الإنسانية ذات صفات اشتراكية.. تسعى للتشارك مرورا بمتعة اللعب والتسلية والجنس والطعام والظهور والعمل والعطاء والحقيقة.. الفرد يسعى ليكون حاضرا في وعي الآخرين، ويسعى للتواصل معهم.. إن أكبر فرحة عند المفكر والشاعر والكاتب، هي تلك اللحظة التي يخرج فيها عمله للجمهور، حتى الأشخاص الذين يعانون من هموم وقلق، يرتاحون كثيرا بمشاركة الآخرين.. كأنه يجري تقسيم الحصص وتوزيع المشاعر وتشاركها. هناك رغبة في التعميم والإعلان والمشاركة وتقاسم السعادة وتعميم الفرح، وكما هناك رغبة في تعميم الفرح والسعادة كذلك هناك رغبة في تعميم الحزن والألم والظلم.. الفرد لا يريد أن يبقى وحده في أي مكان يجد نفسه فيه.

في الواقع هناك دوافع كثيرة يمكن موضعتها هنا هي دوافع معقدة ومركبة.. عندما تكون غنيا وندرك أن غيرك فقير، تميل نحو فعل الخير وتقديم المساعدة.. إنك في الواقع لا تريد تغير نظام يجعلك غنيا ويجعل غيرك فقيرا، بل فقط تريد تخفيف بشاعته.. هنا أنت تفعل الخير للآخرين لكنك أولا تخدم نفسك.. الكثيرون يشتركون في الجماعة دون نسيان

فرديتهم.. في النهاية هناك حصص فردية بعد كل جهد جماعي ومشاركة جماعية. حتى عمليات إنكار الذات والتضحية بها لا تخلو من آثار ذاتية أو من كونها تلبية لرغبات ذاتية.

إن ألم الحرمان عندما نضيف إليه متعة المشاركة يهون ويصبح تحمله ممكنا. لكن إلى درجة محدودة، فعندما تصبح المشاركة جماعية وتشمل كل الجماعة يتغير الموقف ويصبح ذو مفعول معاكس ينشأ نوع جديد من التفعيل ناجم عن الإجماع والتعميم الذي يضيف قوه ويرفع ويعمم الشعور إلى درجات عالية ويصبح الجميع في درجة متقاربة من المشاعر.. فتذوب الفردية ويطغى الطابع العام.. فأم الشهيد تنسى موقعها الأساسي كأم وتدخل في مسرح رمزي مع الجماعة المثارة، وتنخرط فيها وتقوم بدورها الذي يرسمه لها الآخرون، رغم تعاستها، وبذلك تتجاوز حالة التعاسة الفردية الكئيبة بطقوس رمزية جماعية وتعزية جماعية تلعب دورها في تلطيف المشاعر وتهذيبها وفي زيادة القدرة الافتراضية على تحملها.. حتى الشهيد نفسه عندما يتجه نحو الموت المرسوم بدقة (أقصد العمليات الإستشهادية) فهو لا ينظر مباشرة للموت بل ينظر إلى أثر ذلك الموت البطولي على الآخرين فهو يعيش صور وتخيلات ما سيحدث قبل حدوثه ويعيش به مشاعر من الفخر والقوة والانشراح لا ترافق عادة المحكومين بالإعدام. إن لهذا النوع من السحر قدرة كبيرة على تغيير الكثير من المشاعر والتحكم بها.. فاشتراكية السعادة هي تشارك حقيقي وتشارك سحري وهو الأهم.

إن الحفاظ على الرغبات وتنميتها واستثارتها عمل مهم جدا عند الشيخوخه، وهي رغبات لا تقوم على قوة الحاجات ولا تتعلق فيها، بالنظر إلى ضعف الجسد وتآكله، فيميل المتقدم في السن للتعويض في الجماعة، وفي المعنى، عن غياب الجسد وانحسار الفردية. ويص

يبحث عن سعادة مشتركة مع الآخرين أو عن مشاركة الآخرين للسعادة. وهذا ليس مقتصرا على كبار السن بل على كل من فقدوا وسائل سعادتهم واحتفظوا بذكرياتها التي تتأجج بمشاركة غيرهم ومشاهدتهم. هذا ينطبق على الفقراء الذين يتشاركون مع الأغنياء في بعض المظاهر أو الضعفاء الذين يتشاركون مع الأقوياء بالتماهي بهم أو المسحوقين الذي يتشاركون مع المتسلطين بالتذلل لهم والعمل في خدمتهم.. وقس على ذلك فتشارك الحياة وتشارك السعادة وتقاسم الألم هي آليات معقدة وكثيرة تعمل ضمن إطار ما نسميه مطحنة الجماعة التي تطحن وتعجن الفرديات المختلفة في بوتقة الجماعة ومن خلالها ومن أجلها.

السحر وهلوسة السعادة:

الإنسان يعيش عالمين عالم معاش وحقيقي هو عالم الواقع، وعالم معاش لكنه غير حقيقي هو عالم المتخيل.. الواقع يجد صورته في النفس على شكل صورة ومتخيل أيضا.. **والعمل** الذي يغير الواقع يغير صورة هذا الواقع في النفس أيضا، وهو في هذا المستوى لا يختلف في النهاية عن السحر، **السحر:** الذي يغير المتخيل دون الحاجة لتغيير الواقع، فتظهر النتيجة وكأن الواقع قد تغير، أي أن صورتنا عن الواقع تتغير دون المساس به.. في عالم الرغبات النفسية هذا الموضوع مؤثر وفعال.. السحر هام وفعال في عالم الرغبات، وتزيد من قوته إمكانية تصريف الرغبات بطرق سحرية كونها تتشكل في عالم النفس وتشكل طلب نفسي وبالتالي يمكن إرضاؤها نفسيا وذهنيا فقط، وهذا هام وجوهري في موضوعنا، لكن تحدد من قيمته ارتباط بعض الرغبات جزئيا بالحاجات..

فإذا عرفنا السحر أنه الفعل في ساحة المتخيل فقط وتغييره دون المرور في الواقع الموضوعي، فإن هذا الفعل سيكون ذو أثر على الرغبات النفسية التي تعمل هي ابضا في ساحة النفس.. ولن يكون هناك فوارق جوهرية بين صورة واقع تغير فعلا أو صورة واقع توهمنا أنه تغير.. طالما أن الأثر يحدث في النفس فقط وهذا مرتبط بقوة السحر وقدرته على التأثير وقابلية الشخص للخضوع له.. ففي الأطفال مثلا هذا الموضوع قوي جدا.. فليس أسهل علينا من عملية إيهام الطفل.. الطفل الذي يعيش معظم وقته وأحلامه وألعابه في عالمه المتخيل ولا يخرج كثيرا خارجة.. يصبح تربة خصبة للفعل السحري.. حتى وعيه للألم يمكن التلاعب عليه وإيهامه بزواله..

السحر ما يزال يحتل حيزا واسعا من حياتنا.. نحن ما نزال نهتف ونحيي ونشكر ونشجب.. ما نزال نسمع الشعر ونشاهد السينما والتلفزيون ونرقص ونتبارى.. وفي كل ذلك درجة عالية من السحر.. فرغم أننا ونحن نشاهد التلفزيون لا نملك أية صلة واقعية بشخصيات الفيلم الخيالية، لكننا نتعاطف معها ونخوض معاركها. لا يوجد رباط موضوعي لكن توجد رابطة حقيقية.. ويحدث أثر حقيقي. ماذا تفعل ورقة اليانصيب.. إن شراء ذلك الاحتمال الصغير جدا بالثروة يحرض في النفس هلوسة إشباع الكثير من الرغبات وهذا ليس عديم الأثر في النفس..

لكن مهما كانت قدرة الإنسان على السحر فإن قوة السحر لا تعادل قوة الواقع.. ومع ذلك يجب ملاحظة افتراق المتخيل عن الحقيقي.. فالكثير من الرغبات المفعلة بتحريض الحرمان تتفوق كثيرا بقوتها على الواقع الحقيقي.. اقصد أن المتعة المتخيلة من الحصول على الثروة أو على الشريك الجنسي عند البعض أو عند المحرومين بشكل خاص، ستكون أكبر بكثير مما سيمكن الحصول عليه في الواقع وتحصيله منه.. وهنا ما سنسميه **بصدمة الواقع**.. فالطفل يبدأ بتصورات مثالية ضخمة عما يمكن أن يحدث له، لكن الحياة نفسها تقل كثيرا بمتعها ولذائذها وإمكانياتها عن المتخيل والمتوقع.. دائما هناك هبوط من فوق إلى تحت وهناك قوة اصطدام المتخيل بالواقع.. إن طعم الفروج الذي يتخيله الجائع بالتأكيد سيختلف عن الطعم الذي سيشعر به بعد اللقمة الأولى.. وكذا الحال في الجنس.. فعند البعض وكما يقول نزار قباني (.. قد تغدو امرأة يهواها القلب هي الدنيا..) فالحاجة وشدة الرغبة متأثرة بشدة الحرمان وتركيز الرغبة مرتبط بالوعي وتركيز الوعي بقدر حجم الحرمان وقوة الطلب.. هناك مثيرات ومحفزات وهناك مخمدات واللعب على ذلك مهم وضروري في موضوع اقتصاد السعادة..

لكن كل ذلك مرتبط بالقدرة على الفعل والتأثير على شروط الحياة، وهذا ليس متوفراً دوماً بل إن توفره دليل حضاري بحد ذاته.

هناك فارق كبير بين تصورنا عما نرغب ونريد، وهذا يخضع لضغط حاجتنا إليه وقوه رغبتنا فيه، وبين ما نشعر به فعلياً عند الوصول إليه والتخلص من ضغط الرغبة تلك.. في البداية وتحت ضغط الحرمان نبني تصورات تتناسب مع اتجاه الرغبة وتسهلها.. ويصعب علينا إقناع من في هذه الحال التخلص من استلاب الرغبة لهم.. لكن تحقيق الغاية ودفع الثمن ثم الوصول للموضوع المرغوب وإشباع الرغبة والمعايشة، سيلغي ضغطها ويجعلنا تحت ضغط جديد هو ضغط معايشة موضوع الرغبة وما يرتبط بهذا التعايش من التزامات وواجبات.. مما يجعل أي واقع أقل كثيرا من أي تصور وخيال محرض بالرغبة.. وهذا ما عنيناه بصدمة الواقع..

نحن نربي أطفالنا، وننمي عندهم رغبات معينة، فيبدؤون بالسعي لتحقيقها تحت خيمة تصورات جميلة عنها.. نرغب فنحلم ويشكل هذا الحلم ضغطا متزايدا، يدعم ضغط الرغبة، لذلك نستطيع استنفار الجسد ونوظيفه وصرف الوقت والجهد والعمل والصبر.. والكثير من جهودنا ومن حوافزنا للعمل أو للقراءة أو للنضال، يقع في الواقع تحت تأثير رغبتنا وما تولد حولها من تصورات ضاغطة. لكن الكارثة تقع في لحظات الوصول.. عندها نكتشف القيمة الحقيقية لما بذلنا من أجله ذلك الجهد.. بعض البشر يضيعون أجمل سنوات عمرهم بالبحث عن موضوع، ويبذلون من أجله الغالي والنفيس، لكنهم في النهاية وإذا تمكنوا من الوصول إليه لن يكون قادرا أن يعوض عليهم ما بذلوه من أجله، بل يوقعهم في المزيد من الضغوط والالتزامات التي تنغص عليهم سعادتهم المرجوة.. فالسعادة لا تتعدى سعادة قرب الوصول أو لحظا

الوصول.. وهي سعادة وهمية مرتبطة بقوة الحلم والرغبة وبالتصور الخيالي، وليس بممارسة حقيقية ومعايشة وتجريب.. إن تجريب الموضوع المرغوب هو وحده من سيصحح ويعدل قوة الرغبة ويعطيها حجمها الحقيقي.. قد يؤدي الحرمان الجنسي مثلاً إلى استعمار داخلي للنفس فتدخل النفس كلها في هذيان جنسي مستمر يفسر البحث الدائم والدؤوب عن موضوعة الجنس التي تحتل الساحة وتحرم الموضوعات الأخرى من مكانها وفرصتها.. وينحرف السلوك، وعندما يضع المجتمع العراقيل أما تحقيق رغبة قوية وأساسية، فإنه يطيل فترة الاستلاب ويؤدي إلى تشوه خطير في بنية النفس وفي هدف السلوك، ويؤدي بالنتيجة لضعف الأداء العام والفشل في تحقيق التوازن المطلوب للنجاح في الحياة. وعندما نصل لهدفنا الجنسي فلن يكون جنسيا بحتا وفقط، بل بسبب نظام الزواج ستكون علاقة مع كائن كامل له حجمه ومكانته ومتطلباته الأخرى.. وهذا يفاجئ الراغب الذي كان يقبل بأي شيء تحت ضغط الرغبة، لكنه وبعد التحرر منها يكتشف الخديعة ويشعر بالصدمة.. وسرعان ما تتغير المشاعر وشدتها بعد الزواج الذي بني على مجرد الرغبة والخيال السحري، ويضطر الشريكان المخدوعان للبحث عن وسائل التفاهم والتعايش مع واقع جديد لم يكونوا قد سعوا إليه بتفهم ودراية بل وصلوا إليه تحت رغبات محرضة ومفعلة أعمت عيونهم عن الرؤية الحقيقية للواقع المنتظر.

ولنعرف الصورة الحقيقية والقيمة الحقيقية لما نرغب فيه علينا أن نجربه أو نسأل من وصل إليه وحققه.. لذلك كان التواصل والتحاور ضروريا لتنظيم الرغبات وتعديلها وتشذيبها، لكن إلى حد مرتبط بقوة النفس وقدرتها على السيطرة وهذا محدود، وضعيف في مواجهة الغرائز والرغبات الجامحة، وما يرافقها من تصورات سحرية منحرفة عن واقع الأمر.

هنا أيضا نطرح مسألة السعادة عن طريق السحر وهي باب هام ورخيص وممكن.. إن الفن وبشكل خاص التلفزيون ليعتبر وسيلة مدهشة من وسائل الإسحار الممكنة.. إن تنوع البرامج وفعاليتها تعتبر مؤثرا كبيرا وكبيرا جدا على حياة البشر. ليس فقط عبر قدرتها على التسلية والترفيه الضروريين، بل أيضا على إثارة الرغبات والمشاعر وعلى إكفائها الرمزي والسحري أيضا.. إن اختيار البرامج بشكل ذكي بما يتناسب مع السن ومع الظرف ومع الحاجة ومع الغاية، يلعب دورا مهما ليس فقط في تلبية الرغبات بل في تشكلها وفي تشكل أنا عليا مختلفة أيضا.. إن عالم المتخيل هو عالم رحب سهل على وسائل الإعلام دخوله والعمل فيه.. أيضا يجب وضع سياسات إيجابية في هذا الموضوع وعدم ترك هذه الأجهزة فقط تحت رغبات وحاجات وتحكم المعلنين.. إنها أدوات خطرة بل شديدة الخطورة لا يجب أن يسيطر عليها جشع الربح ومنطق الإعلان الرخيص.. كما أنها لا يجب أن تتحول إلى أدوات للضخ الأيديولوجي الكريه.. وحشك العلف الثقافي القسري في عقول البشر المعندة على قبول ما لا تريد ولا تحب.. إن قوة الفن وفعالية ناجمة عن قدرته على خداع النفس واختراقها السلس.. إنها تترك المشاهد حر نظريا في الدخول في لعبتها.. لكنها تأسره في غفلة من وعيه، بواسطة قدرتها على تشبيه الواقع والإيهام به.. إنها تختار من الحياة واقعا افتراضيا موجها ومدروسا بدقة بشرط أن تموه تلك العملية بقوة أيضا.. بالفن نعيد ترتيب الواقع ونعيد معايشته وهذا ليس فقط جوهريا في فهمنا له واستيعابه بل أيضا في تغيير ذواتنا وفهمها وتحسين سلوكها وانفعالها..

فأهمية الفن والمسرح والسينما والرسم والموسيقى والشعر ليست أهمية ترفيهية وتجميلية خاصة بالمترفين.. بل أهمية لا تقل :

أهميــة الحاجــات.. منــذ القديــم اكتشــف الإنســـان هـــذه الأهميـــة واســتعملها.. أما تحجيمـها وإهمالـها فـهي خسـارة لسـلاح فعال فـي معركة الحياة ومجمل أساسـي من أدوات تجميلها.. إن انحطاط مستوى الفـن ونخبويتـه وعـدم مشـاركة الشـعب الفعالـة فيـه وعـدم اسـتجابته لحاجـات وقضايــا البشــر، هــو خســارة كــبرى علــى جبهــة الحضــارة والسعادة..

إن الحضـارة الرأسـمالية الماديـة كما هـو الحـال فـي الاشـــتراكية الإقتصادوية.. كلا هما يقلل أهميـة المعنـى والخيـال والتصـور.. وكلاهمـا يفقر الحياة من أهم مجملاتها ومحفزاتـها.. إن النشـاط الثقـافي لا يقـل ولا ينقص عن النشـاط الاقتصادي بل هو فـي طريقـه للتفـوق عليـه بعـد التطور الكبير في الآلات والماكينات التي صارت تنـوب عـن الإنسـان فـي كل شـيء.. **كنا ننتظر تطورا مذهـلا فـي عـالم الفنـون والثقافـات بما تطرحه الحياة العصرية من إمكانيات هائلة في هذا المجـال، لكن الذي حصل أن الإنسان الرأسمالي بقي مسحورا بالسـلعة المادية.. دون السلعة المعنوية.. والمصانع الرأسـمالية سـخرت كل شـيء في خدمة أرباحها ولم تنتبه بعد لقيمة وأهميـة وربمـا ربحية النشاط المعنوي والثقافي والفني..**

لا أفهم هنا النشاط الثقافي إلا كمشاركة بين المعطي والآخذ، ولا أفهمه كإنتاج مستقل عن البشـر يسوق إليهم.. فبقدر اشتراك قطاعـات أوسع في النشاط الفني والأدبي بقدر ازدهار وتطـور ليـس فقـط إنتاجـه بل المجتمع الذي ينتجه ويعـبر بـه عـن نفسـه.. فالإنسـان لا ينظـر إليـه كعامل أو سائق تراكتور بل ككتلة مـن المشـاعر والأحاسـيس الشـفافة والمعقدة، يجـب التعـامل معـه فـي مسـتواها أيضـا.. إن الشـعور بـالخواء وانعدام القيمة الشائع في العالمين المتقدم والمتخلف، ما هو إلا نتيجة إهمال هذا الجانب والتركيز على الجوانب المادية.. هنـا نسـتعمل كلمـة

مادية كنقيض للمعنى والروح.. ولا نقصد معاني أخرى للمادية (كتلك التي تقول بها الفلسفات المادية المضادة للميتافيزيقية).. إن غنى الحياة الروحية ليس مرتبط فقط بالميتافيزيك أو بالخرافة.. لكن ربما كان إهمال الفلسفات المادية لهذا الجانب واقتصار اهتمامها على الجانب الاقتصادي هو الذي جعلها من اختصاص النظرية الميتافيزيقية.. إن النظرية الميتافيزيقية تقدم اليوم الحلول المثالية والسحرية لمشاعر الإحباط والفشل واليأس والمرض والخوف.. إنها تحمل حلولها السحرية القادرة على التلطيف من تلك المشاعر وزيادة القدرة على تحملها.. وهذا ما يعطيها قوتها حتى الآن.. الميتافيزيك هو الوحيد الذي يرعى اليائسين والمرضى والعاجزين.. في غياب البدائل الأخرى أو في غياب نشاط فني ملحمي فعال قادر على تدريب النفس على التعايش مع الخوف والقلق والفناء.. وقادر على المساعدة على تجاوزها.. إن النشاط العقلي والفني والثقافي هو الذي يقوي قدرة النفس ويصفي نزعاتها ويحسن أداءها.. أما الحياة الفقيرة بكل شيء فهي حياة تنتج الفشل والتعاسة بشكل متعاون ومتضافر..

لعمري إن وجود الحياة والمادة الحية بحد ذاته، يشكل حدثا استثنائيا ومتميزا في ما حوله من طبيعة، كما أن الوعي الإنساني هو أكثر الظواهر الطبيعية سحرا وإعجازا وإدهاشا..والإنسان ذلك الكائن المثير العجيب هو بالفعل ساحر عظيم، سحر الطبيعة بوجوده ووعيه، ثم سحر بها كما سحر بنفسه ووجوده أيضا، لقد خرج بوعيه من الطبيعة الغير عاقلة مفترقا عنها نوعا، ثم قفز فوق واقعه المحدود بخياله ووعيه، وتجربة الوعي الإنساني تبقى هي الظاهرة الأكثر إدهاشا في الوجود والأكثر استثنائية.. حتى لتبدو لغرابتها عن كل ما حولها كأنها تجربة مؤق

مصيرها الاندثار بفعل أي تغير في شروط الكون أو بفعل يدها هي ذاتها... نحن نرتاح كثيرا لمجرد تصور قوى كبيرة واعية متعاطفة معنا تسير الكون، إننا عندها نرتاح ونستسلم لما نحن عاجزون عمليا عن الفكاك منه ومستسلمون له رغما عنا.. نحن لا نغير في هذه الحال سوى وعينا لأنفسنا وواقعنا، فذلك ليس له تأثير فعلي على الواقع.. بالرغم من أثره السحري الكبير في النفس.

متعة الفن والأدب:

في الفن والأدب نعيد صياغة الواقع من موقف عقلي.. نعود من ساحة العقل نحو الواقع ونعيد تركيب عناصره المنتقاة بتؤدة، نعود من عالم المفكر إلى عالم المحسوسات لنعيد تشكيل واقع وهمي تمثيلي مدروس بعناية وممنهج بخفاء، حيث تختفي أيدي صانعه ومحركه وتختفي الفكرة والغاية ليظهر للآخرين كأنه واقع حقيقي يعيشونه ويعونه ويفكرون فيه، نكون قد دخلنا عقولهم وتفكيرهم في غفلة منهم، عن طريق أحاسيسهم الخارجية، وليس عن طريق عقولهم.. الفن سحر حقيقي يغير المدركات دون تغيير الواقع يعتمد على بناء واقع تمثيلي وهمي مدروس نعيشه وكأنه واقع حقيقي ونتأثر به.

في الموسيقى نعمل على الأصوات.. لكنها ليست أي أصوات إنها أصوات مدروسة بدقة وعناية لتحدث في النفس أعمق الأثر بتجاوبها مع نبض الحياة وأعذب نغماتها.

في الرسم نتعامل مع الأشكال.. نختار بعناية الخطوط والألوان ونعيد تشكيل الواقع شكلا بتعبيراته الخارجية وعلاقاته الشكلية بشكل مبسط ومؤثر له قيمة جمالية ودلالية عالية.

في المسرح نجسد الواقع الاجتماعي.. لكننا نختار شخصياتنا بمهارة ونحركها بإحكام ونجعلها تقول ما نريد لها أن تقول وتفعل ما نريد لها أن تفعل.. نكون واقعا تمثيليا يستطيع أسر المشاهد والتأثير عليه كواقع حقيقي وكذا الحال في السينما أو في الرواية.

الشعر يعمل على اللغة يعيد تفكيكها وتركيبها ليقدم تسلسلا مدروسا وموزونا لدلالات وألفاظ اختيرت بعناية.. لا تؤدي دورها الدلالي فقط بل يؤدي ترابطها وطريقة ترتيبها إيقاعا في الصوت والمعنى والدلالة نطرب له ونتأثر به.. فهي تحرك الترابطات القائمة بين الدلالا

وتلعب على الأثر الذي يوقعه فينا سماع اللفظ وليس فقط دلالته اللغوية، وتحركه مع تتابع الألفاظ وتقاطعها. والأغنية هي الدمج بين الشعر والموسيقى.

أما الرقص فهو أيضا إعادة تمثيل وتكرار فني ومدروس ومختزل ورمزي للعمل والصيد والزراعة والقتال وأنماط الحياة الأخرى بما فيها العنف والجنس وركوب الخيل وقيادة السيارات.

وتظهر للفن والأدب أهمية استثنائية في موضوعة السعادة.. ليس لقدرتها على تجميل الواقع المعاش ولا لقدرتها على التسلية، بل لقدرتها على التغلغل في أعماق النفس والتأثير الكبير فيها، بشكل سحري بسيط ورخيص.. فهي تحدث ذلك الأثر الكبير بطريقة سحرية دون الحاجة لتغيير الواقع فعليا.. بالفن لا ننقل فقط معارف وأفكار كما يحدث في التعليم والتثقيف.. بل ننقل مشاعر وأحاسيس ذات أثر هام على الرغبات وعلى البنية النفسية التي تشكل اللاشعور.. بطرق كثيرة ومتنوعة ووسائل وفيرة وأدوات بسيطة ومؤثرة ليس فقط في المشاعر بل في الرغبات وفي المكبوتات وفي العقل والإدراك والمعرفة أيضا..

منذ القديم وعت الشعوب والجماعات البدائية أهمية الفن ووظفته بكثافة في حياتها ومن أجلها، وحتى الآن يعبر مستوى تطور الفنون والآداب عن مستوى تطور وتحضر ورقي الشعوب، وأول علامات انحطاط تشكيلة اجتماعية ما تظهر على فنونها وآدابها.. وأول علامات تقدمها تظهر هي الأخرى على فنونها وآدابها، الفن مرآة أي شعب وصورة أي حضارة.. بدون التواصل مع الفنون والآداب تصبح الحياة قليلة المعنى فاقدة السعادة، والأمة التي لا ترعى فنونها وآدابها ولا تشجعها هي أمة غبية وتعيسة بالفعل. ولا أقصد هنا ذلك النوع من الفن الرسمي الموظف في خدمة السلطة.. ولا الفن النخبوي المخصص للنخبة، ولا

الفن الفوقي الذي يتعالى على الناس ويلقى عليهم من فوق، بل فقط الفن الحقيقي الشعبي المعبر عن الشعب والذي يشارك فيه الشعب إنتاجا واستهلاكا.

في الماضي كل الديانات اعتمدت على الفنون واستعملتها ووظفتها.. وعظمة الكثير من الديانات ليس في فكرها ومعارفها بل في فنونها وآدابها وطقوسها.. وقوة نصوصها لا تنبع من مطابقة مدلولاتها مع الحقيقة بقدر ما تنبع من بلاغتها ولحنها الذي يترنم عليه المصلون..

في الماضي كانت الأعياد والأفراح والأتراح مهرجانات حقيقية منوعة يشترك فيها الجميع، لكل فرد دوره ووظيفته وله متعته أيضا إنها أنواع من الفنون الجماعية لا يوجد فيها ممثل ومشاهد، بل الجميع يمثل والجميع يشاهد، إنها نوع من المسرح الجماعي الملحمي صرنا نفتقر إليه كثيرا.. في تلك الأنواع من الفنون يوظف الجميع كل مشاعرهم وانفعالاتهم ويعيدون صياغة حياتهم وترتيب اهتماماتهم.. إن الحياة المدنية الحديثة رغم غناها المادي فهي ما تزال فقيرة بما لا يقاس بنتاجها المعنوي.. وكل أشكال الفنون الحديثة وللأسف ما تزال استلابية تلقينية تضع المشاهد في موقع سلبي، وتخضع هي ذاتها وللأسف إلى منطق تجاري رخيص مفقر وتافه ومحبط بشدة.. أي بؤس وأي احتقار للإنسان إذا خضع الفن لقانون الربح والخسارة وصار الإنتاج الفني محكوما بنسبة الربح المادي.. وصار تمويل الفنون مرتبط بمردودها التجاري.. أي سقوط وأي انحطاط وأي فقر.

إن شركات الإعلان والإنتاج الفني المحكومة بقانون الربح المادي هي التي دمرت الفن ودمرت الإنسان وجعلته ضحية استلاب وقبح وفظاعة وإضاعة وقت وعلاظة لم يسبق لهم مثيل، بالقياس مع تطور أدوات إنتاج وأدوات التعبير الفني، ناهيك عن تطور أدوات توزيعه وتوصيله الهائل والمذهل.. كنا نتوقع بسبب ذلك التطور مشاهدة نهضة فنية

وأدبية عالمية هائلة أيضا، لكن بالمقارنة مع القرن الماضي نشهد تراجعا في الكم والنوع، وهذه من أكبر جرائم الرأسمالية التي ما تزال تخضع كل شيء لقانون الربح وتعتبر كل شيء مجرد سلعة ذات ثمن، يسعى في إنتاجها ممول يقصد الربح أولا وأخيرا وفوقا وتحتا..

إن أول عمل يجب أن يحدث الآن وفورا هو تحرير سوق الفن والأدب من أيدي التجهيل والتشويه التي تتحكم بالإنتاج الفني والأدبي برمته وفي كل مكان، وتتحكم بسلاح الإعلام الهائل القوة في عالم اليوم.

إن رغبة الشركات بالربح يجعلها تنفق الكثير من المال على شركات الإعلان وتوظفها لخدمتها وبالتالي تقوم الأخيرة بواجبها في تشويهنا وتشويه وعينا والتحايل علينا وتضييع وقتنا في خدمة أغراض رخيصة وتافهة. إن الفن الإعلاني الرخيص هو أكبر دليل على انحطاط النظام الرأسمالي وتفاهته. وهو جريمة بشعة يرتكبها لا تقل عن جريمة تدمير البيئة وتشييء الإنسان.

(هنا نتذكر كلمة سعد الله ونوس في يوم المسرح العالمي عن ضرورة المسرح وأهميته التي لا يجب أن تنتهي في الحياة) المسرح الذي يستوعب ويلبي ويعبر عن نشاطات بشر تغيروا وتغيرت شروط حياتهم. ليس فقط مسرح التلقين ولا مسرح الاستعراض الجنسي الرخيص.. بل مسرح التعبير والنقاش والتباري والمنافسة والتعارف.. ليس فقط المسرح المشكل من خشبة تصطف أمامها الكراسي، بل النوادي والصالات والحدائق والقاعات والشوارع والمدارس مسرح يسمح لكل فرد بالمشاركة والتعبير.. والبحث عن مناسبات جديدة وطقوس جديدة لهذا المسرح الجديد المتناسب مع الحياة الجديدة.

متعة الجمال:

في الواقع تتحكم فينا منظومات فنية جمالية تعطي تقييمها وحكمها على الأشياء.. لكن هذه المنظومات تنشكل من استقراء العلاقة القائمة بين **الشكل والمضمون** وبين **المضمون** وبين **الحقيقة** وبينه وبين **المنفعة**، على أن لا يكون هذا الترابط مجرد ترابط مباشر وبسيط على نحو واحد.

أيضا نلحظ ترابط موضوعة الجمال مع **الانسجام** فصدق التعبير وانسجامه مع محيطه يلعب دورا في جماليته..في الإيقاع مثلا نحن نطرب لإيقاعات الصخب المشتقة من صحب الحياة الحديث..أو لسلاسة أصوات الطبيعة ومحاكاتها لخرير المياه وصوت الريح وزقزقة العصافير.. وربما يطرب الفارس المقاتل لإيقاعات سنابك الخيل وصليل السيوف.. كما يطرب الراعي مع تلك التي تحاكي مسيرة القطعان.. ونحن عندما نطرب لإيقاع ما ليس فقط بسبب ارتباطاتها الشرطية المعقدة، بل أيضا بسبب انسجامها مع إيقاعات النفس الداخلية وتجاوبها معها.. إنها تتجاوب مع خلاصتنا لمجمل الإيقاعات التي سمعناها وعايشناها وتفاعلنا معها، ومجرد عزف ذلك الإيقاع يطلق كم كبير من المشاعر المترابطة معه والتي تستطيع هز الجسد بعنف وقوة بالتجاوب معها. في الشكل أيضا نفس الشيء فتتحكم الصفات الأنثوية مثلا التي تميز الأنثى عن الذكر في مقاييس جمال المرأة.. والمدارس الفنية المختلفة تغيرت وتتغير مع تغير الحياة وتغير منظومات الجمال الحاكمة فيها.

فمتعة الشعور بالجمال ناتجة عن دغدغة تلك الرابطة التي تربطها مع الحقيقة والخير ومن مدى انسجامها الداخلي ومع نمط الحياة وتكوين النفس وكل ذلك ليس شيئا تافها أو غير هام.

وجمال الفنون هو في صدقها وقربها من الواقع ومن المفاصل الأساسية داخل تركيبة النفس ومن قوة ومهارة صانعها ودقة وفعالية أداتها.

متعة الحقيقة:

ماذا تعني بالنسبة لنا كلمة حقيقة؟ ثم هل الحقيقة شيء حيادي بالنسبة للأشياء أو للإنسان؟:

الحقيقة العلمية هي ما تثبته التجربة وما ينبئ به الواقع.. فعندما نتحدث عن ظواهر فيزيائية أو كيميائية أو طبية.. نتوصل إلى فهم يفترض فيه أن يكون معبرا عن الواقع بشكل صحيح.. فالحقيقة العلمية مقياسها الواقع ودليلها التجربة والوجود..أما الحقيقة الفلسفية عموما، فمقياسها هو درجة انسجام عمليات الاستقراء والاستنتاج مع المقدمات المفترضة، ودرجة سلامة ومنطقية هذه العمليات المعروفة في علم المنطق.. لكن هذه المقدمات هي مقدمات افتراضية.. ولا يشترط فيها مطابقتها مع الواقع، فالحقيقة الفلسفيه هي حقيقة افتراضية.... في زمن ما كانت الفلسفة التي تقوم على افتراض أن النزاهه الجنسية فضيلة، هي الفلسفة الصحيحة بشكل مطلق.. في زمن آخر وظرف آخر ربما يكون العكس.. قوة الفلسفة تستمد من شعبيتها، من عدد المقتنعين بها وقوة أثرها فيهم، وليس من مطابقتها للواقع، كما في الحقيقة العلمية وإلا صارت الفلسفة علما.. فلو كان مقياسها الواقع لكان لزاما عليها أن تختص بجانب من جوانب هذا الواقع. أي موضوع محدد من الواقع.. نبات حيوان طب، مناهج عقلية.. لكنها ليست كذلك.. ولا هي حتى تهتم بتكون الأفكار والمعتقدات الإنسانية.. لأن ذلك له علم مستقل هو علم المنظومات الفكرية (الإبستمولوجي)وله مناهجه في دراستها.. إنها فقط تبدأ من حيث تنتهي الأيديولوجيا، وتعود نحو ساحة المعارف والأفكار.. أي أنها العملية التراجعية النقدية التي تعاكس حركة تكون الأيديولوجيات، تبررها أ

تنتقدها وتصححها، وفعاليتها وقيمها مستمدة كما قلنا من شعبيتها.كما أن الحقيقة السياسية هي ما تفرزه نتائج الانتخابات.. أو تقرره نتائج الحروب الأهلية والدولية.. أما الحقيقة الدينية فهي شيء مشابه للحقيقة الفلسفية ومقياسها المقدمات التي يفترضها النص المقدس.

لكن الحقيقة الوحيدة التي يمكن تسميتها بالحقيقة هي الحقيقة العلمية،الحقيقة الموضوعية التي تستمد من صدق توصيف الواقع والتي تشترط تجرد هذا التوصيف. من هنا تأتي رغبة الحقيقة من حاجة فعلية لاكتشاف الحياة والظروف بشكل صحيح، فالخطأ قد يعني الهلاك والخراب، والتصورات الخاطئة قد تؤدي لكوارث، فرغبة الحقيقة هي نوع من، واستمرار لرغبة الحياة والبقاء والنصر في الصراع القائم بين الإنسان ومحيطه. فامتلاك الحقيقة قوة، وامتلاك كمية أكبر من الحقيقة، يعني امتلاك كمية أكبر من القوة، في مواجهة واقع صعب وطبيعة قاسية.. تتضخم هذه الرغبة عند العلماء والباحثين والمفكرين، بسبب ساحة اهتمامهم المركزة عليها.

أما في حال الحقيقة الفلسفية فهي نوع من الاندماج بالجماعة.. إنها رغبة الانضمام للقطيع والنوم في الحظيرة.. الجماعة مهمة ومؤثرة في حياة الفرد، تراقب وتحاسب ولا تنسى صغيرة ولا كبيرة، والتقرب منها والاندماج بها يخلص من التوتر والقلق وعناء التفكر الحر المستقل وقلقه.. إنها غريزة القطيع الموجودة عند البشر، وهي التي تدفع نحو اعتناق الفلسفات الشائعة أو الديانات السائدة، والعكس يعبر عن رغبة في التمرد والعصيان عليها.

السعادة المستحيلة:

من ينظر للحياة بشكل شمولي لن يشعر بالسعادة، لأن هذه النظرة الشمولية تعني الخلط بين التعاسة والسعادة، بين الحسن والسيء، وهذا للأسف هو لمصلحة السيء حتى الآن.. فالنتيجة ستكون رمادية ميالة للسواد في كل عملية مزج.. فالتأمل الشمولي والنظرة الكلية التي تقفز فوق الأماكن وتخترق الزمن هو تأمل حزين بعيون تملأها الدموع.. فالنهاية التي يسير إليها الإنسان تكفي لوحدها لموازنة كل ما عاشه من سعادة.. إن حتمية المرض والفناء والهلاك لهي بحد ذاتها كارثة تقض مضجع الإنسان وتنغص عليه كل سعادة، لهذا السبب ركزت الديانات على هذه الناحية وتعاملت معها بطريقة تتناسب مع رغبات البشر..

في المقياس التأملي العام لا توجد سعادة (سبق و قيل: وما لذة العيش إلا للمجانين).. وحده الذي لا يعرف يسعد.. إن السعادات الصغيرة التي يحصلها الإنسان، لا تشكل شيئا أمام نهر الحزن الجارف الذي يغمر حياته.. وكل العقائد والفلسفات تؤكد طغيان التعاسة على حياة البشر وفقدانها للشروط التي تسمح باعتبارها حياة سعيدة (متاع الغرور دار شقاء دار عذاب وألم).. لكننا نرى أنه حتى الحياة الأخرى التي توعدنا بها الديانات كبديل عن شقائنا في هذه الحياة، هي بشكل أو آخر لا تحتوي إلا عناصر الرغبات والحاجات الجسدية الشهوانية الدنيا من راحة وجنس وطعام وليس هناك مكان للرغبات النبيلة كالرغبة في الخير والعطاء والمعرفة.. لأنها متوفرة ولا حاجة لها وهذا محبط بشدة ومفقر على نحو كبير..(حتى يمكننا القول أن **السعادة موجودة لأن التعاسة موجودة.. وعنده**

لا توجد تعاسة ولا حرمان ولا صراع ولا خوف ولا ظلم ولا ألم لـن تكون هناك سـعادة الإكفـاء و سـعادة النصـر وسـعادة الخـلاص، لذلك نستنتج أن السعادة الشاملة والكلية والتي تتحقـق بـدون الحاجة لوجـود التعاسـة ومـن دون الإعتمـاد عليـها هـي شـيء مستحيل بالمطلق، في الدنيـا وفـي الآخـرة معـا) ... وربمـا كـان البحث عن السعادة هو بحث عن سراب، أو كمـا قـالت المزامير ((باطل هو خلاص الإنسان)).

السعادة الممكنة هي فقـط مجـرد نقـاط علـى خـط الحيـاة التعيس.. لكننا نستطيع تضخيم مساحة هـذه النقـاط ونسـتطيع طمسها.. السـعادة ممكنـة وتجـد معناهـا فـي الخـاص والصغير والجزئـي والمؤقـت.. لتكـون سـعيدا عليـك أن تعيـش اللحظـة وبشـكل جزئـي.. لا توجـد سـعادة شـاملة أو دائمـة، ولا سـعادة مؤجلة، لكل لحظة قيمتها ومكانتها وانفعالها.. على الإنسـان أن لا يشتت نفسه فوق مساحة أوسع من المساحة التي يعيش فيها فعليا، ولا يلهث وراء تصوراتـه البعيـدة والشـمولية فـي كـل وقـت.. لكـي تكـون سعيدا جزء الأمور، للفرح وقت وللعمل وقت وللمرح وقـت وللكـرم أصـول وللجنس طقوس.. لا يعقل أن نلهو ونحن نفكر فـي العمـل.. أو أن نعبـث ونحن نعمل أو أن نعمل ونحن نعبث أو أن نمـارس الحـب ونحـن نشـاهد الأخبار..

يبدو أنـه هنـاك درجـة مـن الجنـون ضروريـة للسـعادة، وأن السعادة مرتبطة بشكل ما وبطريقة ما بـالجنون، وهـذا مـا جعـل تخدير العقل أحد وسائل الحصول على السعادة.. وهـو مـا نعرضـه تحـت باب عقافير السعادة..

إذا كنا نرى أن السعادة حلما مستحيلا، وأننا نتوهم قدرتنا على الحصول على السعادة المكتملة والمستمرة.. إذا كنا نرى أن السعادة مجرد وهم.. فما هي سعادة الوهم؟:

البعض يتخيل نفسه عظيما.. أو يحلم بالحصول على جوائز كبيرة.. الكثيرون يؤمنون أن قوى كبرى ترعاهم وتنصرهم وتسير حياتهم وتنتظرهم في دار الخلود لتضمهم إلى ملكوتها بطرق مختلفة وأديان مختلفة.. الإنسان الضعيف يحتاج لقوى تناصره وتسنده في معركته الخاسرة مع الحياة.. هناك فجوة كبيرة بين وعي الإنسان وبين إمكانياته.. فوعيه يجتاح العالم ويخترق الزمان، ولديه نزوع نحو الخلود والمطلق.. لكن جسده ضعيف وفترة حياته محدودة.. هناك فراغ داخل النفس قد لا يستطيع البعض تقبله وتحمله فيبحث عن طرق لسده مهاما تكن هذه الطرق ومهما تكن درجة منطقيتها.. لا يهم!.. فهي سدادات تسد فراغا عاطفيا معاشا.. إن المرضى بشكل خاص يتغلبون على يأسهم بالأمل.. وهذا الأمل يرتبط في غالب الأحيان بالسحر.. بالخوارق بالمتجاوز للواقع والإمكانيات.. إن موقفهم العقلاني المجرد سيولد عندهم حتما الشعور باليأس، وهم يرفضون اليأس، ويفضلون عليه أمل الوهم أو وهم الأمل. **هناك حاجة مستمرة للوهم والسحر.. وللخوارق، بقدر استمرار الضعف الإنساني.. العقلانية المطلقة كما أسلفنا لا يستطيع عليها إلا ذوو القدرات الكبيرة..** (من لديهم قوة ورباطة جأش ونضج عقلي ونفسي وتوازن وشجاعة).. صحيح أن الإنسان يعي واقعه ويتصالح معه لكن يستمر في رفضه والتهرب من مواجهته..

وليست السعادة مجرد وهم فقط، بل هي أيضا شكل بدون مضمون، فلكل سلوك شكل مناسب، ولكل حياة طقوس ومراسم، ولكل علاقة بروتوكول، فالشكل بالنسبة لموضوعة السعادة ليد

محايدا بل هاما وجوهريا.. والمضمون لا يقف قويا وصارما في مواجهة الشكل، و ربما يمكن اعتبار السعادة شكلية وخارجية وطارئة وجزئية بعكس التعاسة العميقة والراسخة والمتوطدة.

للطعام شكله ولتناول الطعام طقوسه وهي ضرورية كما للجنس كما للعمل كما للمظهر كما للنجاح وحتى للخير.. السعاده أحيانا تتوفر بتوفر مراسم السعادة. ولكل شيء طقوسه وشروطه الخارجية التي إذا توفرت جعلت من إحساسنا به أكبر وأكثر قيمة، فالتمهيد للجنس وترتيب الطاولة وتحضير الطعام ومكانه وتسلسله ومضغ الطعام.. وترتيب الحفلات والتحضير لها وكل ما شابه ربما كان يحمل من السعادة ما يفوق المضامين.

عقاقير السعادة:

قلنا أن الصحوة التامة والتفكير العميق الشمولي يوصل بكل تأكيد نحو انفعال وحيد رمادي وحزين.. إنه الإدراك الموضوعي لبؤس الإنسان وتعاسته، بل أيضا لعبثية وتفاهة حياته، والمتع والأهداف التي يجهد الإنسان نفسه وراءها.. وقلنا أن قليلا من الجنون وقليلا من العته تجعل الحياه أبسط وأجمل.. (سفر الجامعة من العهد القديم يقول: كل خبزك برضا نفس واشرب خمرك بسرور ونم مع المرأة التي تهوى وافعل ما أنت فاعل، فإنه لا حكمة ولا غاية في الجحيم الذي أنت صائر إليه) بهذه الكلمات البسيطة التي صغناها بتصرف يجري تلخيص يأس وفشل التجربة الإنسانية، منذ القديم أدرك البشر حاجتهم لتخدير عقولهم لذلك استعملوا الأطعمة والأعشاب المخدرة والمثبطة للذهن.. فالخمر هو الوسيلة الأكثر شيوعا فيما مضى والآن.. الخمر يثبط العقل وينشط العاطفة يحرر النفس من سيطرة الوعي المطلقة.. تنطلق البواعث والدوافع المختفية تحت تأثير قمع سلطة المراقبة الذاتية.. بالخمر تتحرر النفس جزئيا من الرقيب الداخلي وتتحرك بسهولة ويسر أكثر نحو غاياتها.. الخمر يسهل انطلاق الفرح، ويخفف أثر الآخرين ويخفف الخجل، ويطلق الشهوات، مع الخمر تحلو النغمات وتزهو الألوان، لكن قدرات العقل المجرد تتأثر سلبا، والقدرة على التقدير والمحاكمة والتجرد والشمول تتراجع، وقد يرتكب الإنسان أفعالا جرمية، بسبب تدني قدرته على ضبط سلوكه وكبح دوافعه.. وفي السكر الشديد تتدهور القدرات العصبية و يفقد المرء قدراته الأساسية وصولا نحو توقف الدماغ والموت.... **والمسألة التي ينبغي فهمها هي ذلك التناقض بين السعادة والعقل**..... إن تخدير بعض أقسام العقل

وبخاصة الأقسام النبيلة، كمركز الضمير والأنا الأعلى، أي مراكز المراقبة الذاتية ومراكز التأثر بالغير ومراقبة ردات فعله، يساعد على تحرر مراكز النشوة ومراكز الفعل، ويطلق العنان للرغبات لتحقق ذاتها دون رقيب ولا حسيب، ودون حسابات للربح والخسارة.. أي ليس تدمير العقل كله دفعة واحدة ونهائية، بل البدء بتحجيم سطوة الأنا الأعلى واستبدادها..

بعض النماذج النفسية يسبب لها الخمر سعادة لأنه يريحها من قوة الأنا الأعلى التي ربما تكون قاسية عندهم أكثر من غيرهم.. هناك شخصيات ميالة للتخدير وشخصيات لا تتولع كثيرا به لعدم حاجتها إليه.. أيضا تختلف رغبة الشخص بالخمر باختلاف ظروفه وشروط حياته.

لم يجرب الإنسان الخمر لوحده لقد جرب الكثير من الأعشاب والنباتات والمواد المخدرة التي تخمد فعالية الدماغ والعقل.. وتحرض هلوسات ومشاعر مختلفة.. إن بعض النباتات وبعض المواد التي تستخرج منها لها مفاعيل عجيبة على الشعور.. لكنها في النهاية مواد سامة مدمرة للجهاز العصبي.. وقد تكون قاتلة.. هناك أعداد كبيرة من البشر يسعون وراء المخدرات ويستهلكونها.. وهي تشكل بالنسبة إليهم رغبة.. فالرغبة في السكر والرغبة في التخدير موجودة ولها أسباب تتعلق بالتكوين النفسي وبالظروف المكونة والظروف المعاشة.. ولا يجب أن يفهم موضوع المخدرات بمعزل عن الشروط الحياتية والتربوية.. والثقافية.. (لا أقصد وأنا أقول ثقافة بمعنى التعلم.. بل أقصد الثقافة بالمعنى الواسع أي التي هي مجمل البناء الذهني لجماعة والتي يمكن نقلها بين الأجيال وبين الأفراد.. إنها مجموعة هائلة من النظم والأفكار والمعتقدات والقيم والتصورات والوسائل كاللغة والهوية..) ومكافحة المخدرات لا تنتهي ولا يجب أن تنتهي بمعاقبة المدمنين.. لأنهم هم ذاتهم بدرجة ما ضحايا عملية تأهيل وتربية وتكوين نفسي مشوه، تعتبر الجماعة مسؤولة عنه إلى حد بعيد.

أخيرا تطورت الأدويه وصار بالإمكان الحديث عن عقاقير تساعد على السعادة.. وهي مرشحة للتطور الكبير في العقود القادمة، مما قد يسمح بالتحكم بالانفعال إلى درجة كبيرة، دون الإضرار بالجسد والصحة، وهذا ما سيفتح آفاقا جديدة في حياة الإنسان وسلوكه لا نستطيع توقعها..

قد يصبح بالإمكان أن يزول الشعور بالألم والمرارة والبؤس بدون تغيير الحياة والوقائع.. وقد يصبح سلوكنا غير محكوم بالرغبات التي يسهل قمعها واستبدالها، فالسعادة الدوائية تزيد من ساحة السحر ومقدار إمكانية الابتعاد عن الواقع، وتوسع ساحة الوهمي والكاذب والتعويضي على حساب ساحة المعاش الواقعي والمحسوس.

وربما قد يصبح من الواجب إجراء تعديلات وراثية مهمة على تكوين الإنسان ليواجه مشكلات وأنماط جديدة من الظروف، خاصة بعد زوال أثر الاصطفاء الطبيعي الذي كان يحكم تطور البشر وارتقاءهم، والذي توقف تقريبا بعد تطور الطب والحياة الاجتماعية.. وربما صار بالإمكان توجيه الاصطفاء وتسريعه عبر التحكم بالإنجاب، وربما عبر الاستنساخ والتهجين و الهندسة الوراثية.. كل تلك العوامل ستكون مطروحة بقوة في القرن القادم...الذي ينفتح على عالم مجهول ومختلف كثيرا عن كل توقعاتنا.

فلسفات السعادة:

كما اختلفت المدارس الفنية وتنوعت.. كذلك اختلفت الفلسفات المعبرة عن السعادة، بحسب الظروف وبحسب مراحل التطور التاريخي وبحسب زاوية ووجهة النظر.. فلكل مرحلة ثقافة ولكل ثقافة فلسفة ووجهة نظر في مواضيع الحياة.. فالمقارنة بين فلسفات السعادة المختلفة يجب أن تقترن بظروفها وتاريخيها.. ونحن الذين نعيش اليوم عالما مختلفا يتغير بسرعة، لا نستطيع التثبت عند فلسفات ووجهات نظر تخص مرحلة قديمة كما لا يجب علينا التنكر لتراثنا الإنساني الضخم.

في لحظة ما تكون رغبة ما قوية ومسيطرة وفي لحظة أخرى رغبة أخرى.. ذلك يختلف باختلاف الوقت وباختلاف الظروف.. وفي جماعة ما تكون الأولوية لتلبية رغبات ما.. لكن في كل الأحوال يمكن البحث عن مؤشرات إحصائية تفيد في إعطاء الملامح العامة التي تميز مجموعة بشر في مرحلة ما يعيشون على ثقافة ما. فطالما أن البشر كتكوين متشابهين، فإن اختلافهم سيكون باختلاف الظروف والثقافات ومن هنا نتوصل لتعريف الثقافة بالمفهوم الموسع، وهو كل ما يمكن حمله ونقله من جيل إلى جيل ومن فرد إلى فرد، والمكون من بناء عقلي وذهني وخبرات ومعارف ومناهج ومفاهيم ولغات، وهذا له دور كبير في تكوين الرغبات وفي موضوعة السعادة وفلسفتها.

لقد أعادت الحياة الفردانية الرأسمالية الليبرالية الاعتبار للطبيعة الجسدية بعد أن سعت المذاهب السابقة لها إلى إنكارها عبر فلسفة التسامي والتنزه عن الشهوات.. والتي كانت تشترط درجة عالية من إنكار الذات والغرائز، كوسيلة للتطهر والنجاة والانضمام للجماعة، التي

كانت تتحد وتلتفي بإله الجماعة ورمزها المتعالي، وليس بالدولة التعاقدية القائمة على الاختيار الحر.. أفصح مثال على ذلك هو الترهبن أو التصوف.. لقد جاءت الفلسفات الحديثة على نحو معاكس وربما أفرطت في التركيز على الجسد وأهملت الجانب الروحي والجانب المتعالي في الحياة.. ولم يكن رد الفلسفات الاشتراكية مناسبا فقد وقع هو الآخر في الإقتصادوية، وأهمل الجوانب الحياتية والنفسية الأخرى.. فلا إنكار حاجات الفرد مفيد، ولا إطلاق العنان لشهوانيته وجشعه المفرط، مفيد هو الآخر.. إن درجة من التوازن والموضوعية يجب أن تحترم عند البحث عن السعادة.. و ما يمكن الإشارة إليه أنه مهما كان النظام الذي يسود الجماعة فهو لن يكون مطلق التأثير على المدى الطويل فمع مرور الزمن لا بد من عودة التوازن، ولنفترض أن نظاما ما قام على التركيز على مسألة العدالة وأهمل الجوانب الأخرى فلن يطول الوقت حتى يكثر الناس الذين يرغبون في مبادلة العدالة بالرفاهية أو بالحرية.. أو بالعكس نظاما أفرط في التركيز على الحرية فهو سيؤدي إلى تزايد الباحثين عن الخير والعدالة والنزاهة الروحية. لأننا دوما نتعامل مع بشر لديهم مجموعة متشابهة من الدوافع والحاجات تطلب إشباعها كلها ودوما وبغض النظر عن النظام الذي يحكمها.

وإذا قبلنا بالمفهوم الإحصائي للسعادة فنحن نرى أن مقدار السعادة مرتبط بمجموع الرغبات والحاجات المشبعة كما وعددا عند فرد ومجموع الأفراد، وهذا هو المقياس النهائي لتفضيل نظام عن آخر أو اعتباره أكثر سعادة من غيره.. ولما كانت الرأسمالية تضع رغبات البعض ضد رغبات البعض الآخر وعلى نقيضها.. لذلك كانت السعادة المحصلة في الحياة الحديثة صغيرة رغم التقدم المادي الكبير (وهو ما نطلق

عليه تعبير تعاسة الحداثة).. بينما يمكن نظريا بسهولة تلطيف التناقض والصراع بين البشر وبالتالي تخفيف تعاستهم

كما يمكن بسهولة إزالة التناقض فيما بين الرغبات المعنوية والنفسية، فهي رغبات غير متعارضة و غير متناقضة.. فالرغبة في الخير والحب والجمال والنزاهة والصدق والحقيقة.. هي رغبات جمعية وجماعية.. بينما يشتد التنافس على إشباع الحاجات و الرغبات المادية الفردية التي لها صفات احتكارية.

ويمكن القول أنه بالرجوع لتراث الإنسانية الكبير وتجاربها القديمة والحديثة وبسبب انفتاح العالم وتوحده، يمكن البحث عن فلسفات جديدة تخدم ظروف جديدة، أي أن ملامح فلسفات جديدة عالمية كونية يجب أن تتضح لترسم طريقة جديدة للحياة تخدم أغراض جديدة بوسائل جديدة..

خاتمــة

إذا اخترنا في النهايـة تعريفا إحصائيا للسـعادة يقـول أنـها **نسـبة إشباع وإكفاء مجموع الحاجـات والرغبـات، فـي الصعيـد الفـردي والجماعي..** وهـي علـى ذلـك تختلـف باختلاف هـذه الحاجـات وهـذه الرغبـات، و بـاختلاف شـدة ونـوع الطلـب واختـلاف الأفـراد والجماعــات واختلاف الزمن.. نكون في هذا التعريـف قـد اختصرنـا خلافـا طويـلا حـول تعريف السعادة يحتزل في الواقع خلافا في وجـهات النظـر مـن الحيـاة.. فلكـل إنسـان حاجاتـه ورغباتـه وكـل إنسـان يسـعى أولا وأساسـا فـي سـبيلها، ومقدار سعادة هـذا الإنسـان هـو مُقـدار قدرتـه علـى إشـباعها وإكفائها أو تلبيتها، وهذا ليس مفصولا عن ظروفه وعن مجتمعه.

ولا نتصور سلوك إنسان حر متوازن نفسيا، لا يهدف لتلبية حاجاته التـي يحـب البعـض اختصارهـا بكلمـة (مصـالح).. بـدون أن تقتصـر علـى المعنى المادي لوحـده، **فالمصـالح بالمفـهوم الموسـع هـي التـي تحـرك بنـي البشـر، وكـل ظـرف وكـل شـــرط يعيشــه الإنســان ينعكــس بطريقــة أو أخـرى فـي صعيـد الحاجـات والطلبــات والرغبـات، لكـن ذلـك لا يلغـي دور الإدراك والمحاكمــة والعقـل والضمير،** فسلوك الإنسان مسبوق دائما بفكـرة ما عنـه وإرادة تطلقـه وعقل ينظمه ويديره..وفي حال تعرض الإنسان إلى عملية إلـزام، فذلـك لا يعني أن تتحرك يديه وقدميه بأوامر غير نابعة عـن دماغـه الـذي يـدرك قـوة وطريقـة تلبيـة القـوى الملزمـة والسـلوك الـذي يرضيــها ويكفيــها.. فالشروط المحيطية تدخل الإدراك وتشكل ضغطا هي الأخرى.. لكنها قد تكـون ظرفيـة ومؤقتـة.. أو تدخـل إلـى سـاحة الحاجـات والرغبـات التـي تشـكل قـوة دفـع داخلـي شـبه مسـتمرة توجـه وتضغـط بشـكل شـبه

مستمر أيضا.. لذلك فإن تكوين الرغبات والحاجات مسألة ذات أهمية كما هو تفعيل الرغبات وتأجيجها، كما هو إشباعها أو تصريفها وتنفيسها، أيضا تشجيع بعض الرغبات والتركيز عليها لتعويض الخسائر في الرغبات الأخرى، كما هو الحال في تشجيع العقل والتأني والنزاهة والتوازن.. فمفعول السعادة مفعول جمعي.. ومن الأهمية بشكل خاص السعي لتحقيق طفولة سعيدة مدروسة.

يمكننا إذا أردنا تصنيف السعادة أن نصنفها إلى: مادية معنوية جسدية نفسية حقيقية خيالية مباشرة تعويضية معاشة متخيلة مؤجلة فردية جماعية... لكننا إذا أردنا المفاضلة بين أنواعها نقول أنه:

إذا كان أجمل ما في الوجود هو الإنسان.. وإذا كان أجمل ما في الإنسان هو عقله.. فلربما كانت سعادة المعرفة هي أجمل أنواع السعادة.. أو بشكل آخر، إذا كان أرقى ما في الوجود هو الإنسان.. وإذا كان عقل الإنسان هو ما يميزه ويجعله أفضل وأرقى المخلوقات، فلا عجب إذا اعتبرنا أن سعادة المعرفة، المحصلة باستعمال هذا العقل، هي أرقى أنواع السعادة بلا منازع، لكنها لسخرية القدر تتنافض بسبب واقع الحياة مع الفرح والسرور، فالمعرفة تعني إدراك وتصور المصير المرسوم للإنسان.. حتى يمكننا القول أن أرقى أنواع السعادة هي نفسها سعادة مؤلمة بدرجة ما.

أخيرا نقول يجب علينا أن نبحث عن السعادة فتلك سنة الحياة وطبيعة البشر، لكن لا يجب ان نفرط في البحث كثيرا، لأنها أشبه بدمعة ماء نبلل بها جفاف الحياة المجبرين على ابتلاعها...

وكل سعادة محصلة هي ليست فقط جهد فردي ونجاح ذاتي، إنها قبل ذلك سياسة واقتصاد وثقافة تحكم معا حركة مجتمع ما بكل أفراده.. فالبحث عن السعادة ليس فقط في حياة الفرد الذي صار جزءا من الدولة، بل أيضا في سياسة الدولة، التي يجب أن تخضع للعقلانية وللتخطيط الموجه بإرادة الجمهور.. والتي تحدد غالبية الخيارات المتاحة للفرد، ومقدار مساهمته وحصته من الناتج الإجتماعي العام بكل اشكاله.

و إذا انتهى بحثنا في اقتصاد السعادة للقول بأن السعادة سياسة! فلا عجب.. طالما أن السياسة هي أيضا اقتصاد.. أو بشكل أصح: إن الحياة الاجتماعية حلقة متصلة بين الاقتصاد والثقافة والسياسة، وحياة المجتمعات الحديثة محكومة كثيرا بشكل الدولة وسلوكها ضمن نظام دولي مؤثر، وهذا ما يحدد المقياس العام للسعادة في المجتمع، و يحدد إمكانية إنتاجها ونطاقه، و يحدد طرق توزيعها وشكل استهلاكها، ونصيب كل جماعة وكل فرد منها.

٢٢/٢/٢٠٠٠

الفهرس



"الأمر الأساسي الذي يحاول المؤلف إثارته في هذا الكتاب هو محاولة توجيه السلوك الجنسي والسيطرة على هذا الدافع الغريزي وتوظيفه ضمن الأطر الصحيحة البناءة"

[illegible]

"سوف نبحث في إنتاج السعادة واستهلاكها بهدف الوصول إلى الطرق الكفيلة بزيادة هذه المادة التي نلح في طلبها أي أننا لسنا بصدد الحديث عن يوتوبيا اقتصادية أو اقتصاد عالم سعيد، بل البحث عن السعادة في الواقع وضمن الإمكانيات المتاحة هذا إذا كان لنا سيطرة على حياتنا، وإذا كنا نستطيع التخطيط العقلاني لها على مستوى الفرد والجماعة"

[illegible]

"لكننا سنبحث عن وظيفة وطريقة اشتغال المعتقدات والأفكار الدينية وعن طريقة تكوينها ونظامها العقلي والفكري، من خلال استعراض التطور التاريخي لمفهومي الإله والرب منذ أقدم العصور إلى عصرنا الراهن"

[illegible]

من خلال ما تقدم نجد أنفسنا أمام مفكر يقدم مساهمة للبحث عن نظرية الثقافة ....



